أوائلُ الشعر الحسيني البُكائيّ

صفحة النّاشر

أوائل الشعر الحسيني البُكائيّ

ديوانه وما فيه من دلالاتٍ ومغازي

الشيخ د. جعفر المهاجر

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرست الموضوعات

المقدمـــة

(1)

يقولون بصدق أنّ الشعر خزّان ذاكرة الشعوب . فيه يودعون أفراحَهم وأحزانَهم ، آلامَهم وآمالَهم ، ماخاب من هذه وماأفلح ، وتجاربَهم وخبراتهم وحكمَتهم . يودعون كلَّ ذلك شعرهم كيما يبقى أمانةً حيّةً برسم الأجيال ، بمعنىً ما من معاني الحياة . جاهزةً كيما تهزّهم أو تنفعهم أو تُحرّك خيالهم ، لتُعديهم بما كان قد حرّك نفسَ الشاعر لحظةَ نطقَ بالشعر .

من أجل ذلك اصطنعتْ الشعوبُ الشعر .

حسناً ، ولكن لماذا الشعر بالذات ، وما عيبُ النثر وهو الأسبق والأعرق في اللغة البشريّة ؟

الجواب : إنّ في الشعر طاقةٌ ليست في النثر . وليس على مَن يستشعر هذه الطاقة الكامنة ، إلا أن يأخذَ بيتاً من الشعر هزّه وحرّك جنانَه ، فينثره بحيث يؤدّي معناه كاملاً غير منقوص ، مجرّداً من صفته الشعريّة . إذ ذاك سيلمس أنّه قد غدا شيئاً آخَر ، فقيراً وربما تافهاً ، بحيث بات فاقد القدرة على مثل ما كان له شعراً من تأثيرٍ وتحريكٍ للخيال .

فمن هذا نعرفُ أنّ بعض سرّ ما للشعر من طاقةٍ وقوةِ تأثير كامنٌ في موسيقاه وإيقاعه . طبعاً بوصف الموسيقى والإيقاع إطاراً ورصيداً ووعاءً إضافيّاً لتفليق الشاعر للمعاني ، من المضمون الموضوعيّ لشعره . وفي ذلك يتنافس الشعراء .

(2)

ثمة ها هنا سؤالٌ أظنّ أنّ القارئ اللبيب سيطرحه بمجرّد وقوفه على عنوان الكتاب .

لماذا " البُكائيّ " وصفاً لأوائل الشعر الحسينيّ ؟

لماذا لم نصفه بـ (الرّثاء) . وهي الكلمة الجارية على الألسُن والأقلام اسماً لهذا

الفنّ من فنون الشعر ؟

ما من ريبٍ في أنّ (الرّثــاء) ، اسماً لكلّ الشـعر الذي أودعناه الفصلَ الأوّلَ
من الكتاب ، تحت عنوان (الديوان) ، هو اسمٌ صحيح . ومع ذلك فقد آثرنا عليه وصفَ " البكائيّ " ، لأننا نرى (الرّثائي) قاصراً جدّاً عن الدرجة الشُّعوريّة الحادّة القويّة ، التي أودعها شعراءُ (الديوان) شعرَهم .

الرّثاء ، حتى الجيّد البارع منه ، يمكن أن يكونَ عملاً سطحيّاً احترافيّاً ، خالياً من أي انفعالٍ شخصيّ لدى الشاعر . أمّا هاهنا ، فيما تركه لنا أُولئك الذين اكتوت أفئدتهم بجمرة الجريمة الرهيبة ، فنحن أمامَ شحنةٍ عاطفيّةٍ شخصيّةٍ صادقة . امتزج فيها الحزن بالأسف بالغضب بالخوف وأحياناً بالوعيد ، امتزاجاً تامّاً ، بحيث تضيع الفواصلُ بين هاتيك العناصر . وهذا مُركّبٌ نادرٌ جدّاً في كلّ ثروتنا الشعريّة الهائلة ، وإخالُ أنّه فريد ، فيما تركته لنا أجيالٌ بعد أجيال من كبار الشعراء .

ثم أنّ فعل (بكى) واشتقاقاته يتردّد كثيراً في كلّ ما وصل إلينا وسجّلناه من الشعر الحسينيّ المُبكّر .

لكلّ ذلك آثرنا وصفَ الشعر الحسيني بـ " البُكائيّ " .

(3)

ما من حدَثٍ في تاريخنا اختزن من الطّاقة مثل ما اختزنته تلك الساعات من ظهيرة يوم العاشر من المُحرّم سنة 61 هـ . بحيث أنّه ظلّ منذ تلك اللحظة يُنتجُ أدباً وتحليلاتٍ ومواقفَ من الأشخاص والأعمال ، فضلاً عن ظواهر اجتماعيّةً وسياسيّة . أصدقه وأقواه ، على مستوى اختزان الشعور الشّخصيّ ، الشعرُ الأوّل المُبَكّر الذي بدأ إنتاجُه فورَ الحدَث . وذلك أمرٌ طبيعيٌّ ، لأنّ الجرحَ آلـمُ ما يكون فورَ حصوله . كما يكون الارتكاسُ عليه بالحزن والغضب . . . . الخ. أقوى ما يكون .

لذلك اخترنا أوائل الشعر الحسيني البُكائي موضوعاً للبحث .

بُغيتُنا فيما تحت هذا العنوان ، أن نقرأ ذلك الشعر قراءةً تعمل على الغوص في

وُجدان وضمائر وعقول الناس وفي رؤيتهم وفهمهم للحدَث ، وهم الذين رأوا بحقّ أنّهم موضوعٌ له ، بل وأنّهم هم مقصودون بالجريمة النّكراء .

على مستوى الوُجدان والضمائر ، من حيث أنّ الشهيد هو ابن بنت نبيّهم ، فقتْله علناً ثم ما تبعه وتلاه من ضُروب التنكيل ، يتجّـه مباشرةً إلى قلب وموقع جدّه ، وعبرَه إلى قلوب كلّ المؤمنين بـه . وقد امتلأ الشعر الحسينيّ باستحضار رسول الله (ص) باعتباره المُصاب الأوّل بريحانته .

أمّـا على مُستوى الرؤية السياسيّة ، فباعتبار أنّ الجريمة قد نالت الآمالَ العريضة والحصْريّة التي كان الناس يعلقّونها على الإمام الشهيد ، في مُقابل الطُّغمة الحاكمة التي سلبتهم كافة حقوقهم السياسيّة والمدنيّة . وفي هذا السبيل اشترتْ أو استتبعتْ أو أسكتتْ كلّ النُخبة المؤهّلة للقيادة بالاتجاه المناسب لهم . ولم يبقَ من معقد أمل إلاّه . فعندما رأوه يسقط شهيداً ، وجسدَه تدوسه الخيول ، ونساءَه يُسقن سَوْقَ السبايا ، وكلٌّ ذلك مقصودٌ وحمّالُ رسائلَ إليهم ، عرفوا أنّهم قد أُحيط بهم من كلّ جانب ، وأنّ كلَّ آمالهم قد سقطت . فطفقوا يودعون أزمتَهم خزانةَ الشعر .

وكلا المُستويَين ، الوُجداني والسياسي ، سنقرأه في أوائل الشعر الحسيني البُكائيّ ، بوصفه خزّان ذاكرة الناس في تلك اللحظات . كما سيكون موضعَ عنايتِنا دراسةً وتحليلاً في الفصل الثاني من الكتاب إن شاء الله تعالى .

(4)

البحث مَنسوقٌ على فصليَن :

ـــ الفصل الأوّل : وهو تحت عنوان (الديوان) . استوعينا فيه جُـلَّ ما وصل إلينا من شعرٍ مُبكّرٍ دار على أو في الحدَث الكربلائي . سنجعله مُصنّفاً موضوعيّاً في خمسة أبواب ، تبعاً لرؤية ولظرف ومواصفات صدور كلٍّ منها . لأنّ كلاًّ من تلك الأصناف الخمسة تحملُ وتعبّرُ عن ذاتيّتِها الخاصّة ، تبعاً لرؤية وظرف ومواصفات صُدورها وموقع صاحبها كما قلنا . مع التأكيد على أنّ الجامعَ بينها ، هو أنّها جميعها

تنطلق من حالة الحزن والأسف والغضب ممّا وقع ، ومن الخوف من الآتي ، أو العكس . ثم سنُتبعه ببابٍ سادس تحت عنوان (يزيد) ، نُسجّل فيه ما سجّله الشعرُ على ماجرى منه وعليه ، ممّا يُمكن اعتباره من تداعيات يوم كربلا . وسنرقّم النصوص الشعريّة برقمٍ مُتسلسل شاملٍ في الأبواب الستة من الفصل الأوّل ، تسهيلاً لإرجاع الكاتب والقارئ إلى نصوصها في الفصل الثاني .

ــ الفصل الثاني : وهو تحت عنوان (قراءةٌ في الدّلالات والمغازي) . وفيه

سنتّخذ من تلك المادّة الشعريّة مؤشّراً ومرشداً إلى مُواصفات القاعدة البشريّة التي ساهمت في الحدث وفي تداعياته ، بدرجةٍ أو بغيرها ، ومن موقعٍ أو غيره . بين قابضٍ على السُلطة ، لم يرَ في خروج الإمام إلا أنّه يمنحه فرصةً لإسكاته نهائيّاً . وثانٍ خضع لحسابات ميزانِ القُوى الآني فانحاز إليها أو نكص على عقبيَه واعتزل ، ثم كان من هؤلاء وأُولئك مَن ندم بعدُ أشدَّ النّدم . وثالثٍ أذهلته فظاعة الجريمة غير المُتوقّعة . ورابعٍ رأى الهّوْل الآتي بعد أن سقطت كلُّ الحُـرُمات . . . الخ . وكلُّ ذلك سجّلوه في شعرهم .

من الواضح أنّ هذا الفصل هو الغاية من البحث . وأنّ وظيفة الفصل الأوّل تقتصر على توفير المادّة لِما سنتناوله في الفصل الثاني . على أنّنا ، في سبيل إعطاء الفصل الأوّل حقَّه في حركة البحث إجمالاً ، يجب أن نُنوّه بأنّ هذه أوّل مرّةٍ تُـتـاحُ فيها للقارئ مادّتُه الشعريّة مجموعةً مُنسّقةً موضوعيّاً .

والحمد لله رب العالمين

بعلبك الأربعاء 6 ذو القعدة 1437 هـ
10 آب / أغسطس 2016 م

الفصل الأوّل

الديــوان

(1) التيارات العاملة في الكوفة يوم كربلا كما نقرأها في الشعر.

(2) أصداء يوم كربلا في المدينة .

(3) شـعر النّــدم .

(4) أوّل ما قيل في شهادة الحسين (ع) .

(5) المُكتّمـات .

(6) يـزيــد .

الباب الأوّل

التيّارات العاملة في الكوفة يوم كربلا كما نقرأها في الشعر

الطرمّاح بن عديّ ، من أنصار الحسين (ع)

لمّا انتهوا { أصحابُ الحسين (ع) } إلى عذيب الهجانات[1] ، وإذا سُفّرٌ أربعة ، أي أربعة نفر مسافرين ، قد أقبلوا من الكوفة على رواحلهم ، يخبّون ويُجنبون فرساً يُقالُ له الكامل ، قد أقبلوا من الكوفة يقصدون الحسين . ودليلهم رجلٌ يُقالُ له الطرماح بن عَديّ ، راكبٌ على فرس ، وهو يقول :

(1)

يا ناقتي لا تذعري من زجري   وشمّري قبل طُلوع الفجرِ
بخير رُكبانٍ وخير سفرِ   حتى تحلّي بكريم النّحرِ
الماجد الحُرّ رحيب الصّدرِ   أتى به اللهُ لخير امرِ
ثمّتَ أبقاه بقاءَ الدهرِ[2]

1 ــ موضعٌ قرب الكوفة .
2 ـــ أبو الفداء ابن كثير : البداية والنهاية ، ط. بيروت 1966م : 8 /173 .

كعب بن جابر الأزدي ، من فريق السُلطة

{ . . . . } وعابَتْ زوجةُ كعب بن جابر { بن عمرو الأزدي } عليه ، فقالت : أعنتَ على ابن فاطمة ، وقتلتَ سيّد القُرّاء بُرير[1] ، لقد أتيتَ عظيماً من الأمر . والله لا

1 ــ روى أبو مُخنف عمّن شهد مقتل الحسين (ع) ، قال : أنّ رضيّ بن مُنقذ العبدي حمل على بُرير بعد أن قتل هذا مَن بارزه بعد مُباهلة ، فاعتنق بُريراً . فذهب كعبُ بن جابر ليحمل عليه ، فناداه راوي الخبر فقال لـه : " إنّ هذا بُرير بن حُضير القارئ ، الذي كان يُقرئنا القرآن في المسجد " فحمل عليه كعب بالرمح حتى وضعه في ظهره ونفذ من صدره : (الطبري ، تاريخ ، ط. مصر ، دار المعارف ، لات. : 5 / 432) .

أُكلّمك كلمةً واحدة . فقال يُخاطبها :

(2)

سلي تُخبَري عنّي وأنتِ ذميمَـــةٌ غداة حسينٍ والرّماح شوارعُ

ألمْ آتِ أقصى ما كرهتُ ولم يُخَـلْ عليّ غداةَ الرّوع ما أنـــا صانـعُ

معــي يَزَنـيٌّ لـم تـخُنْـه كُـعوبُـهُ وأبيضُ مَخشوبُ الغِراريَن قاطعُ

فجرّدتُه في عُصبةٍ ليــس دينـهـم بديني وإنّي بابن حـربٍ لـقـانـعُ

ولـم تـرَ عيني مثلَهم فـي زمانهـم ولا قبلَهم في النـاس إذ أنا يافـعُ

أشـدَّ قراعاً بالسيوف لدى الوغى ألا كـلُّ مَـن يحمي الذِّمارمُقارعُ

وقد صبروا للطّعن والضّرب حُسّـراً وقـد نازلوا ، لـو أنّ ذلــك نافـعُ

فأبلِـغ عُبيـــدَ الله إمّــا لقيتَـــه بأنــّي مُطيـعٌ للخليفـــة ســامـعُ

قتلــــتُ بُـريـراً ثـم حمَّلتُ نعمـةً أبــا مُنقذٍ [1]لمّــا دعـــا : مَن يُماصِـعُ

ثـم أنّ رضيّ بن مُنقذ العبدي ردّ على كعب بن جابر جوابَ قوله فقال :

فلو شاء ربّي ما شـهدتُ قتالَهم ولا جعلَ النّعماءَ عندي ابنَ جابرِ

لقد كان ذاك اليوم عاراً وسُبـّةً يُعيّرَه الأبنــــاء بعــد المعاشـــرِ

فياليت أنّي كنـتُ من قبلِ قتلــهِ ويومَ حسـينٍ كنتُ في رمس قابرِ [2]

1 ـــ هي كنية رضيّ بن مُنقذ العبدي .

2 ـــ الطبري : 5 / 433 ، ومقتل الحسين : 1 / 12 . لاحظ هنا اختلاف السّياق .

(3)

عبد الله بن نمير ، من أصحاب الحسين (ع) ، أثناء المعركة . قال:

إنْ تُـنكـراني فـأنـا ابن الكلبي بيتــــي في بيــتٍ عليـمٍ حسـبِ

إنّـي امرؤٌ ذو مِــرّةٍ وعضبِ   ولستُ بالخوّار عند الكــرْبِ
إنّي زعيــمٌ لــكِ أُمَّ وهْـــبِ[1]   بالطّعنِ فيهم مُقدِماً والضَربِ
ضـرْبَ غـلامٍ مؤمنٍ بالرّبِّ[2]

1 ــ يعني زوجته أو أمّه باختلاف الروايات .
2 ـــ البداية والنهاية : 8 / 182 .

حبيب بن مُظاهر الأسدي

{ . . . . } فحمل عليهم حُصين بن تميم . وخرج إليه حبيب بن مُظاهر الأسدي ، فضرب وجهَ فرسِه بالسيف . وحمله أصحابُه فاستنقذوه . وطفِقَ حبيب يقول :

(4)

أقسِــمُ لـو كُنّــا لكـم أعدادا   أو شطرَكـم ولّيتُمُ اكتـــادا[1]
ياشـــرّ قـومٍ حَسَـباً وآدا[2]

وجعل يومئــذٍ يقـول :

أنــا حبيبُ وأبــي مُظاهِـرُ   فارسُ هيجـــاءٍ وحربٍ تسعرُ
أنـتـم أعَــدُّ عُـدّةً واكثـــرُ   ونحن أوفـى منكمُ وأصبـــرُ
ونحن أعلـى حُـجّـةً وأظهرُ   حقّــاً وأتقـى منكمُ وأعـــذرُ[3]

1 ــ جماعات .
2 ــ نسبا .
1 ـــ الطبري : 5 / 439 .

الحُـرّ بن يزيد الرّياحي

لمّـا قُتل حبيب بن مُظاهر هدّ ذلك حسيناً . وقال : " عند الله أحتسبُ نفسي
وحُماة أصحابي " . فأخذ الحُـرُّ يرتجزُ ويقول :

(5)

آليـتُ لا أُقـتَلُ حتــــى أقتُــلا ولـن أُصـابَ اليـومَ إلا مُقبِـلا
أضربهم بالســيف ضرْبا مُقصِلا لا نــاكِـلاً عنهـم ولا مُهـلّــلا

ويقول :

إنّي أنـــا الحُـرُّ ومـأوى الضّيفِ أضربُ في أعراضِكم بالسيفِ
عن خير مَن حلّ مِنـى والخَـيْفِ[1]

ولمّا عقروا بالسّهام جوادَ الحُرّ ، نزل عنه وفي يده السيف كأنّه ليثٌ ، وهو
يرتجزُ ويقول :

إن تعقروا بي فأنـا ابنُ الحُـرِّ أشـجعُ من ذي لُبـدةٍ هِزَبْـرِ[2]

---

1 ـــ نفسه : 5 / 440 ـــ 41 .
2 ـــ البداية ولنهاية : 8 / 182 ، والخوارزمي :مقتل الحسين ،ط. قم ،لات : 2 / 11 .

زهير بن القَيْن

وقاتل زهير بن القين قتالاً شديداً . وأخذ يقول :

(6)

أنــــا زهيرٌ وأنـــا ابن القين أذودُهُـم بالسيف عن حسينِ

وأخذ يضربُ على منكب حسين كأنّه يودّعه ، وعاد يُقاتل وهو يقول :

أقدِمْ هُديـتَ هادياً مَهديّــا اليوم تلقــى جَـــدّكَ النّبيّـــا
وحســنا والمُرتضى عليّــــا وذا الجناحين الفتـى الكَمِيّـا

وأسدَ الله الشهيدَ الحيّا[1]

1 ـــ الطبري : 5 / 441 . وذا الجناحين جعفر بن أبي طالب شهيد مُؤتة . وأسدالله حمزة.

عبد الله وعبد الرحمن ابنا عزرة الغِفاريّان

جاء عبد الله وعبد الرحمن ابنا عزرة الغِفاريّان أثناءَ المعركة إلى الحسين (ع) ، فقالا : " يا أبا عبد الله عليك السلام ! . حازنا العدوُّ إليك ، فأحببنا أن نُقتَلَ بين يديك ، نمنعُك وندفعُ عنك ".

فقال لهما : " مرحباً بكما ! ادنوا منّي ! " . فدنوا منه . ثم جعلا يُقاتلان قريباً منه ، وأحدهما يقول :

(7)

قد علمت حقاً بنو غِفارِ وخِنْدَفٍ بعد بني نِزارِ
لنضربنَ معشرَ الفجّارِ بكلّ عَضْبٍ صارمٍ بتّارِ
ياقوم ذودوا عن بني الأحرارِ بالمَشرفيّ والقَنا الخطّارِ[1]

1ـــ أيضاً : 5 / 442 ، والبداية والنهاية لابن كثير : 8 / 184 ، ومقتل الحسين للخوارزمي: 2 / 23 .

يزيد بن زياد الكناني

جثا يزيد بن زياد الكناني ، وكان رامياً ماهراً ، على ركبتيه بين يدي الإمام الحسين (ع) . فرمى بمائة سهم ، ما سقط منها على الأرض إلا خمسةُ أسهم . أي أنّ الباقيات اصابت أهدافها . فلمّا فرغ من الرّمي قال : قد تبيّن لي أنّي قتلتُ خمسة نفر ، وأنشد :

(8)

أنـــا يـزيـدُ وأنـــا مهاجـرُ   أشـجـعُ مـن ليثٍ قويٍّ خادرُ
ياربٌّ إنّـــي للحســين ناصـرُ   ولابـن سـعدٍ تاركٌ وهاجـرُ[1]

1 ــ البداية والنهاية : 8 / 185 ــ 86 .

عُمير بن عبدالله المَذحجي

خرج عُمير بن عبد الله المَذحجي { إلى القتال } وهو يقول :

(9)

قـد علمت سعدُ وحـيٌّ مَـذحجِ   أنّـي ليث الغـاب لم أهجهجِ
أعلـو بسـيفي هـامـةَ المُـدجّـــجِ   وأتــركُ القَـرمَ لـدى التّعرُّجِ
فريســةَ الضّبـع الأزلّ الأعــرجِ   فمَـن تـراه واقفـاً بمنهجــي[1]

1 ــ مقتل الحسين : 2 / 14 .

عمرو بن خالد الأزدي

برز عمرو بن خالد الأزدي وهو يقول :

(10)

اليومَ يـا نفسُ إلــى الرّحمـــانِ   تمضيــن بالــرّوح وبالـريحـــانِ
اليومَ تُجـزَيـن علــى الإحسانِ   قـد كــان منـكِ غـابر الأزمانِ
مـا خُـطَّ باللّـوح لـدى الدّيّانِ   فاليــومَ زال ذاك بالغُـفــــرانِ
لا تجـزعـي فكلُّ حــيٍّ فـــاني   والصبـرُ أحظـــى لكِ بالأمانِ[1]

1 ــ مقتل الحسين : 2 / 14 .

خالد بن عمرو الأزدي

ثم تقدّم ابنُهُ خالد وهو يقول :

(11)

صبراً على الموت بني قحطانِ كيما نكون في رضى الرحمانِ

ذي المجد والعزّة والبرهانِ يا أبتا قد صرتُ في الجنانِ[1]

1 ـــ نفسه .

سعد بن حنظلة التميمي

تقدّم سعد بن حنظلة التميمي للقتال وهو يقول :

(12)

صبراً على الأسياف والأسنّة صبراً عليها لدخول الجنّة

وحُور عِينٍ ناعماتٍ هُنّه لمَن يريدُ الفوزَ لا بالظّنّة

يا نفسُ للرّاحةِ فاطرحنّه وفي طِلاب الخير فارغبنّه[1]

1 ـ أيضاً .

مسلم بن عوسجة

خرج مسلم بن عوسجة الأسدي وهو يقول :

(13)

إن تسألوا عنّي فإنّي ذو لبَد من فرع قومٍ من ذُرى بني أسد

فمَن بغاني حائدٌ عن الرّشَد وكافرٌ بدين جبّارٍ صمد [1]

1 ـــ أيضاً .

عمرو بن جنادة

برز عمرو بن جنادة وهو يقول :

(14)

أضِـقْ الخنـاقَ مـن ابـن هندٍ وارمِـهِ فـي عقـره بفـوارس الأنصـارِ
ومهاجـريـن مُخضّبيـن رمـاحهـم تحـت العجـاجـة من دم الكُفّارِ
خُضبـتْ علـى عهـد النبي محمـدٍ فاليـوم تُخضَبُ من دم الكُفّارِ
واليـومَ تُخضَبُ من دمـاء معاشـرٍ رفضوا القُران لنصـرة الأشرارِ
طلبـوا بثـارهمُ ببـدرٍ وانثنـوا بالمُرهفـات وبالقنـا الخطّـارِ
واللهِ ربّـي لا أزالُ مُضـارِبـاً للفـاسـقيـن بمُـرهَفٍ بتّـارِ
هـذا علـيّ اليـومَ حـقٌّ واجـبٌ فـي كـلّ يـومٍ تعانُـقٍ وحوارِ [1]

---

1 ــ أيضـاً . وثمّةَ أهازيج حربٍ أُخرى لأصحاب الإمام . سنكتفي بذكر ما أوردناه منها لِما فيها من دلائل خاصة .
انظر ما لم نذكره منها في (مناقب آل أبي طالب) لابن شهرآشوب ، ط. بيروت 1412 هـ / 1991م : 109/4 وما بعدها .

عمر بن سعد

سُمع { عمر بن سعد بن أبي وقّاص } وهو يُخاطبُ بُرير بن خضير الهمْداني بعد أن وعظه هذا وهو يقول :

(15)

دعاني عُبيـدُ الله مـن دون قومـهِ إلـى خِطّـةٍ فيها خرجتُ لحيني
فوالله ما أدري وإنّـي لحـائـرٌ أُفكّـر فـي أمـري علـى خطرَينِ
أأتـرك ملكَ الـرّيّ والـرّي منيتي أم أرجـع مَـذمومـاً بقتـل حسينِ

وفي قتلـه النّـــار التي ليـــس دونهـــا   حجابٌ ، ومِلكُ الـرّي قرّة عيني [1]

1 ـــ ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ط. بيروت 1385هـ / 1965م : 4 / 53 .

الأخنس بن مُرثد الحضرمي

بعد المقتل أمر عمر بن سعد فنُودي : مَن ينتدب للحسين فيوطئه فرسَـه ؟ فانتدب عشرة نفر ، منهم الأخنس بن مُرثد الحضرمي ، فداسوا صدر الحسين (ع) وظهره . وهو القائل بعد ذلك :

(16)

نحن رضضنـــا الظّهرَ بعد الصّدرِ   بكلّ يعبـوبٍ شديد الأسْـرِ

حتـــى عصينـــا اللهَ ربَّ الأمــــرِ   بصُنعنـــا مـع الحسـين الطُّهرِ

فداسوا حسيناً بخيولهم حتى رضّوا صدره وظهره . فسُئل عن ذلك ، فقال :

هذا أمرُ الأمير عُبيد الله [1] .

1 ـــ مقتل الحسين : 2 / 38 ـــ 39 .

سنان بن أنَـس

قال الناسُ لسنان بن أنَس : قتلتَ حسينَ بن عليّ وابنَ فاطمة ابنة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم . قتلتَ أعظمَ العرب خطراً . جاء إلى هؤلاء يريـد أن يُزيلهم عن مُلكهم . فأتِ أُمراءَك فاطلب ثوابك منهم . لو أعطوك بيوتَ أموالهم في قتْل الحسين كان قليلا .

فأقبل على فرسِـه ، وكان شُجاعاً ماهراً ، وكانت به لوثـــةٌ . فأقبل حتى وقـف على باب فسطاط عمر بن سعد ، ثم نادى بأعلى صوتِه :

(17)

أوقِــرْ ركـابـي فضــةً وذهبـا   أنـــا قتلتُ الملك المُحجّبـــا
قتلتُ خيــرَ الناس أُمّـاً وأبـــا   وخيرَهــم إذ يُنسـبون نسـبا

فقال عمر بن سعد : " أدخلوه عليّ ! " ، فلمّا دخل رماه بالسّـوط وقال له : " ويحك ! أنت مجنون ؟! . والله لو سمعك ابنُ زياد تقول هذا لضرب عنقك [1] " .

---

1 ــ الطبري : 5 / 454 ، والبداية والنهاية : 8 / 189 .

<u>**الباب الثاني**</u>

أصداءُ يوم كربلا في المدينة

عمرو بن سعيد بن العاص الأشدق

كتب عُبيد الله بن زياد إلى يزيد بن معاوية يخبره بقتل الحسين وخبرِ أهل بيته . وكتب أيضاً إلى عمرو بن سعيد بن العاص الأشدق أمير المدينة بمثل ذلك .

عندما قدِم رسولُه المدينة ، وأعلمه بقتل الحسين (ع) ، أمره بأن يُنادي بالخبر . وعندما سمع صراخ نساء بني هاشم في دُورهن ضحك وقال :

(18)

عجّت نسـاءُ بني زيادٍ عَجّةً　　كعجيج نسوتِنـا غداةَ الأرنب

ثم قال : " يومٌ بيوم عثمان " [1].

---

1 ـــ الطبري : 5 / 466 .

مروان بن الحكم

لمّا سمع مروان بن الحكم صُراخَ نساء بني هاشم قال :

(19)

ضـربـت دوسرُ فيهم ضربـةً　　أثبتت أوتـادَ مُلكٍ فاستقرّ[1]

---

1 ـــ ابن الجوزي : مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ، ط. بيروت 1434هـ/2013 م: 5 / 291 .

أسماء بنت عقيل بن أبي طالب

لـمّا قُتل الحسين عليه السلام خرجت أسماءُ بنت عقيل بن أبي طالب تنوح وتقول :

(20)

مـاذا تقولون إن قـــال النبيُّ لكـم يومَ الحســاب وصدق القول مسموعُ

خذلتــمُ عـترتي أو كنـتمُ غُـيبـــاً والحـقّ عنــد ولــيّ الأمــر مجمـــوعُ

أسلمتمـوهم بـأيدي الظالمين فمـــا منكم لــه اليـومَ عنــد الله مشــــفـوعُ

ما كان عند غداة الطّفّ إذ حضروا تلك المنـايــا ولا عنهـــنّ مَــدفـوعُ[1]

1 ـــ مناقب آل أبي طالب :125/4

زينب بنت عقيل بن أبي طالب

لمّـا أتى أهلَ المدينة مقتلُ الحسين خرجت زينب ابنة عقيل بن أبي طالب ومعها نساؤها وهي حاسرة تلوي بثوبِها وتقول :

(21)

ماذا تقولون إذ قـال النبـي لكم مـاذا فعلتـم وأنتم آخــر الأُمــمِ

بعترتــي وبـأهلـــي بعــد مُفتقَــدي منهم أُسارى ومنهم ضُرّجوا بـــدمِ

ما كان هـذا جـزائـي إذ نصحتُ لكم أن تخلفـوني بسـوءٍ في بنـــي رحــمـــــي[1]

1 ــ الطبري : 6 / 75 .

مُنادٍ مجهول

أصبحنا صبيحةَ قتْل الحسين بالمدينة فإذا مولىً لنا يُحدّثنا ، قال : " سمعتُ مُنادياً يُنادي وهو يقول " :

(22)

أيّهــا القاتلـون جهــلاً حسـينـاً　　ابشـروا بالعـذاب والتّنكيـلِ
كلُّ أهل السّماء يـدعو عليكم　　مــن نبــيٍّ ومالــكٍ وقبيـــلِ
قـد لُعنتــم عاــى لسان ابن داوود وموســى وصـاحـبِ الإنجيلِ[1]

1 ـــ أيضاً : 5 / 467 .

بشير بن حذلم

قال بشير بن حذلم : { . . . . } فلمّا قربنـا { من المدينة } أنـزل عليُّ بن الحسين (ع) فحطّ رحلَه وضرب فسطاطَه وقال : يا بشير رحم الله أباك لقد كان شاعراً ، فهل تقـدر على شيءٍ مثلِه ؟ فقال : بلى يا ابن رسول الله ، إنّي شاعر ! فقال عليه السلام : ادخل المدينةَ وانعَ أبا عبد الله .

قال بشير ، فركبتُ فرسي وركضتُ حتى دخلتُ المدينة . فلمّا بلغتُ مسجدَ النبي صلّى الله عليه وآله رفعتُ صوتي بالبُكاء وأنشأتُ أقول :

(23)

يا أهــلَ يثرب لا مقـام لكـم بهـا　　قُتل الحســين فأدمعــي مـدرارُ
الجســمُ منــه بكربــلاء مُضرّجٌ　　والرأسُ منــه على القناة يُـدارُ[1]

1 ـــ ابن طاووس : الملهوف على قتلى الطّفوف ، ط. طهران 1422هـ باعتناء فارس الحسّون / 227 .

جارية

{ . . . . } وسمعتُ جاريةً تنوح على الحسين فتقول :

(24)

نعـى سـيّدي نـاعٍ نعـاه فأوجعـا وأمرضني نـاعٍ نعـاه فأفجعـا
فعينيَّ جُـودا بالـدمـوع وأُسكبا وجُودا بدمعٍ بعدَ دمعكما معا
على مَن دهى عرشَ الجليل فزعزعا
فأصبح هذا المجد والدين أجدعا
علـــى ابــن نبــيّ الله وابــن وصيّــه
وإن كان عنّـا شاحـطَ الدارأشسعا [1]

1 ــ نفسه / 227 ــ 28.

نائحة اسمها ذرّة

نائحةٌ في المدينة اسمها (ذرّة) قالت أنّها رأت السيّدة الزهراء (ع) في المنام وأمرتها أن تنوح على الحسين (ع) بهذه الأبيات :

(25)

أيّـهـــا العيـنـــان فيضـــا واســـتهـــلاّ لا تغيضـــا
وابكيـــا بالطّـفّ ميتـــاً ترك الصـــدرَ رضيضـا
لــم أُمــرّضــه فأســـلو لا ولا كـــان مــريضـــا[1]

1 ــــ الشيخ المفيد : الأمالي ، ط. النجف 1378هـ : 1 / 78 . والحقيقة أنّ من حقّ هذه الأبيات أن تُنسَقَ في شعر المُكتّمات الآتي ، لأنّ النائحة قد نسبتها إلى السيّدة الزهراء (ع) ، وهذه من جملة ما توسّل به الشعراء إلى إخفاء أشخاصهم ، حذرَ مُلاحقة السُلطة لهم . ولكنّنا آثرنا ذكرها في هذا الباب لِما فيها من دلالةٍ نادرة على أصداء يوم كربلا في المدينة .

أُمّ البنين

كانت أُمُّ البنين ، زينب بنت حزام الكلابيّة ، زوجة أمير المؤمنين (ع)
، تخرجُ إلى البقيع لتندب أولادها الأربعة ، حاملةً حفيدها عُبيد الله بن العباس .
فيجتمع أهلُ
المدينة لسماعها . وفيهم مروان بن الحكم . وكان من ندبها :

(26)

لا تدعونّي ويكِ أُمَّ البنين ... تُذكّريني بليوث العرين
كانت بنونٌ لي أُدعى بهم ... واليومَ أصبحتُ وما من بنين
أربعةٌ مثل نُسور الرُّبى ... قد واصلوا الموتَ بقطع الوتين
تنازع الخُرصان أشلاءَهم ... فكلّهم أمسى صريعاً طعين
ياليت شعري أكما أخبروا ... بأنّ عباساً قطيع الوتين

؟[1]

---

1 ــ السّماوي : إبصار العين في أنصار الحسين ، ط. إيران 1419 هـ / 64 .

الباب الثالث

شعر النّـدَم

يحيى بن الحكم الأُموي

لمّـا أُدخلت السّبايا والرؤوس على يزيد ، كان يحيى بن الحكَم أخـو مروان ، { يعني في المجلس } ، فقال :

(27)

لَهـامٌ بجنْـب الطّـفّ أدنـى قرابــةً   من ابن زياد العبد ذي النّسب الوغـل

سُميّة أضحـى نسلُها عددَ الحصى   وليـس لآل المُصطفـى اليـومَ من نســلِ

فدفع يزيدُ في صدره ، وقال له : " أُسكتْ لا أُمّ لك[1]! " .

1 ــ الطبري : 5 / 460 وابن الأثير: الكامل : 4 / 37. وسنُبيّن في الفصل الثاني لماذا نسقنا البيتيَن في شـعر النّـدم .

عُبيد الله بن الحر الجُعفي

كان عُبيـد الله بن الحرّ الجُعفي [1] من الذين تقاعدوا عن نصرة الحسين (ع) بعد أن ندبه لذلك . ثم ندم من بعدُ أشدّ النّدم . فقال :

(28)

فيالـكِ حسرةً ما دمـتُ حيّـاً   تردّدُ بين حلقي والتّـراقــي

حسينٌ حين يطلبُ بَـذْلَ نصرٍ   على أهل الضلالـة والنفاق

1 ــ لقيه الإمامُ قُبيل نزوله موقعَ كربلا فدعاه إلى نصره فاعتذر . فقال له : " إنْ لا تنصرني فاتّقِ الله أن تكون ممّن يُقاتلنا ". فقال : " أمّا هذا فلا يكون أبدا إن شاء الله " . (ابن الأثير : 4 / 51) .

غداة يقول لي في القصر[2] قولاً أتتركنا وتُزمــع بالفــراق
ولـو أنّــي أُواسـيه بنفســـــي لنلـتُ كـرامـةً يـوم التلاقي
مع ابـن المصطفي نفسي فـداه تولّـى ثـــم ودّع بانطـــلاق
فلو فلــق التلهُّفُ قلـــب حيٍّ لهـــمّ اليومَ قلبي بانفـلاق
لقد فـــاز الأُلى نصروا حسيناً وخاب الآخرون إلى النفاق[3]

2 ــ يعني (قصر هُبيرة) ، قريةٌ على مسافةٍ من الكوفة .
3 ــ ابن الجوزي : مرآة الزمان : 5 / 297 .والخوارزمي: مقتل الحسين: 228/1.

خرج { عُبيد الله بن الحُرّ الجُعفي } حتى أتى كربلا . فنظر إلى مصارع الحسين ومَن قُتل معه . فاستغفر لهم ، ثم مضى إلى المدائن . وقال في ذلك :

(29)

يقـولُ أميـرٌ غــادرٌ وابـن غـادرٍ ألا كُنـتَ قاتلـتَ الحسـينَ بن فاطمة
ونفسـي على خِـذلانهِ واعتزالِه وبيعــةِ هـذا النّاكـثِ العهـدِ لائمــة
فيـا نـدمـي أنْ لا أكونَ نصرتُهُ ألا كـلُّ نفسٍ لا تُشـدّدُ نــادمـــــــة
وإنّـــي لأنّــي لم أكُن من حُماته لـذو حسـرةٍ أنْ لا تُفـارق لازمــــة
سـقى اللهُ أرواحَ الـذين تبــادروا
إلـــى نصْــره ســـحّاً مـن الغيث دائمـــة
وقفتُ على أجداثِهم ومحالّهم فكاد الحَشا ينقضُّ والعينُ ساجمــــة
لعمري لقد كانوا مصاليتَ في الوغــى
سِراعاً إلى الهيجـا حُمـــــاةً خضارمــة
تأسّوا على نصْر ابنَ بنت نبيّهم بأسيافهم آســادَ غَيْـلٍ ضراغمــــة
فأن يُقتلوا في كلّ نفس بقيّــةً على الأرض قد صارت لذلك واجمة

وما إن رأى الرّاءون أفضلَ منهمُ
لــدى المـوت ســاداتٌ وزُهــرٌ قماقمــة
يُقتّلهم ظلماً ويرجو ودادنـا فدَعْ خِطّــةً ليست لنـــا بمُلائمـــة
لعمري لقد راغمتمونا بقتلهم فكم ناقِمٍ منّـا عليكـم وناقمـــة
أهمُّ مِراراً أن أســيرَ بجحفلٍ إلى فئــةٍ زاغت عن الحـقّ ظالمـــة
فكُفّوا وإلا زدتكُم في كتائـبٍ اشــدَّ عليكم من زُحوف الدّيالمــة [1]

1 ــ ابن الأثير : 4 / 288 ــ 89 . وانظر اضطرابَ هذا الثّائر الوحيد في : نفسه : 4 / 287 ــ 95 .

ومن شعره الذي يتأسّفُ فيه على امتناعه عن نصرة الحسين (ع) :
(30)
ولمّا دعـا المُختـــارُ للثـأر أقبلـت كتائـــبُ مـــــن أشـــياع آل محمـدِ
وقـد لبسـوا فـوقَ الدّروع قلوبَهم وخاضوا بحـارَ الموت في كلّ مشهدِ
هـمُ نصـروا سبطَ النبيّ ورهطـهِ ودانوا بأخـذِ الثـأر من كلّ مُلحـــدِ
ففــازوا بجنّــاتِ النعيـم وطيبِها وذلـك خيـرٌ من لجيـــنٍ وعسجـــدِ
ولو أنّني يـومَ الهياج لدى الوغى لأعملـتُ حـــدَّ المشرفــيّ المُهنّــــدِ
ووأسـفا أن لم أكُــنْ مـن حُماتــهِفأقتـلُ منهم كــلَّ بــاغٍ ومُعتــــدي[1]

1 ــ أدب الطّفّ ، ط. بيروت 1422هـ / 2001م : 1 / 99 .

المُثنّى بن مُخرّبة العبدي البصري

وكتب سليمان بن صُرّد إلى سعد بن حُذيفة بن اليمان يُعلمه بما عزموا عليه ويدعوه إلى مساعدتهم ومَن معه من الشيعة بالمدائن .... الخ . وكتب أيضاً إلى المُثنّى بن

مُخرّبة العبدي بالبصرة مثل ما كتب إلى سعد ، فأجابه المُثنّى . وكان من جوابه :

(31)

تبصّر كأنّي قد أتيتك مُعلِماً على أتلع الهادي أجشّ هزيمِ
طويلِ القرا نهْد الشّواة مُقلّصٍ مُلحٍ على فأس اللجام أزومِ
بكلّ فتىً لا يملأ الرّوعُ قلبه مِحَشٍّ لنار الحرب غير مَسومِ
أخي ثقةٍ ينوي الإلهَ بسعيه ضَروبٍ بنصل السيف غير أثومِ[1]

1 ــ الطبري : 5 / 558 وابن الأثير : 4 / 162 . بخلافٍ يسير بينهما .

عُبيد الله بن الحر الجُعفي

اجتمع رؤساءُ الشيعة عند قبر الحسين (ع) فتكلّموا . وقام وهب بن زمعة الجُعفي باكياً على القبر ، مُتمثّلاً بأبيات عُبيد الله بن الحُرّ الجُعفي :

(32)

إليك أخا الصّبّ الشّجيّ صبابةً تُذيبُ الصّخورَ الجامداتِ همومُها
عجبتُ وأيّامُ الزمان عجائبٌ ويظهر بين المعجِبات عظيمُها
تبيتُ النّشاوى من أُميّة نُوّماً وبالطّفّ قتلى ما ينامُ حميمُها
وتضحى كرامٌ من ذؤابة هاشمٍ يُحكَّمُ فيها كيف شاء لئيمُها
وتغدو جُسومٌ ما تغذّت سوى العُلى غذاها على رغم المعالي سُهومُها
وربّاتُ صَوْنٍ ما تبدّت لعينها قُبيل السِّبا إلاّ لوقتٍ نجومُها
تزاولُها أيدي الهوان كأنّما تقحّمُ ما لا عفوَ فيه أثيمُها
وما ضيّع الإسلامَ إلا قبيلةٌ تأمّر نوكاها ودام نعيمُها
وأضحت قناةُ الدين في كفّ ظالمٍ إذا اعوجّ منها جانبٌ لا يُقيمُها
وخاض بها طخياء لا يُهتدى لها سبيلٌ ولا يرجى لها مَن يعومُها

ويخبط عشــوا لا يُــرادُ مُرادُهـــــا عَـزومُهـــــا ويركــبُ عميا لا يُــــردُّ
يُجشّـمها ما لا يُجشّـــــمه الــــرّدى جسـومُهـــا لأودى وعــادت للنفوس
إلى حيث ألقاهـــا ببيـــداء مَـجْهـلٍ حُـلومُهـا تضــلُّ لأهــل الحلـم فيهـــا
رمتهـــا لأهل الطّفّ منها عصابـــةٌ لومُهـا حَـداهـا إلى هــدْم المكـــــارم
فشــنّت بها شـعواءَ فـــي خير فتيـةٍ همومُهـــا تخلّت لكسْـب المكرمـــات
فما صعّـــرت خــدّاً لإحراز عـــزّةٍ مـايُضيمهـــا إذا كـــان فيهـــا ساعـــةً
أولئـــك آلُ الله ، آلُ محمـــــــــدٍ كريمهـــا كـــرامٌ تحــدّت مـــا حــداها
يخـوضـون تيّـــار المنايـــا ضوامنـــاً هيمُهـــا كما خـــاض في عذب الموارد
يقـوم بهـــا للمجـــد أبيضُ ماجــدٌ يرومُهـــا أخـــو عزماتٍ أقعـدتْ مَـن
حمـــى بعــدما أدّى الحِفـــاظ حمايـةً زعيمُهـــا وأحمـــى الحُمـاة الحافظين
إلى أن قضى مـــن بعـــد ماأن قضى فـطـيـمُـهـــا على خمـــأٍ يسـلي السّـهام
أصابتـــه شـــنعاءُ فلـو حـلّ وقعُهـــا تخومُهـــا على الأرض دُكّـــت قبل ذاك
فأيّمُهـــا لم تلـقَ بالطّـــــفّ كافــلاً فـطـيـمُـهـــا ولم يــرَ مَـن يحنو عليــــه
أضاءت غرابُ البين فيها فأصبحت بومُهـــا مـــن الشّـجو لا تأوي العمارة
فقصّرْ فما طُـــول الكـــلام ببالــغٍ كليمُهـــا مـــداها رُمـــي بالعـيّ عنها
فما حملـت أمُّ الرّزايـــــا بمثِلِهـــا عقيمهـــا وإنْ وُلـــدت بالدهــر فهي
أتـــى الطيرُ ما فيهـــا بـــأوّل مُفضلٍ يسومها فماذا الذي شحّـت على مَـن
فأقسـمتُ لاتنفـــكُّ عيني حزينـــةً سـجومُـهـــا وعينيّ تبكـــي لا تجـفُ
حياتـــــــيَ أو تلقى أُميّـةُ وقعـــــةً قرومُهـــا[1] يَـذلُّ لهـا حتى الممــــات

---

1 ـــ سبط ابن الجوزبي : مرآة الزمان : 5 / 298. وقد نسبها في (أدب الطّفّ :133/1) خطأً إلى راويها .

عبد الله بن عوف بن الأحمر الأزدي

عندما سار التّوّابون من كربلا ، كان عبد الله بن عوف بن الأحمر الأزدي[1] يتقدّمهم على فرسٍ كميتٍ تتأكّلُ تأكُّلاً ، وهو يقول :

(33)

خـرجـنَ يلمعنَ بنـــا أرســالا عوابسـاً يحملـنـنـا أبطـــــالا
نُريـدُ أن نُلقّـــــي الأقيــــــالا القاسـطين الغُــدّر الضُّلاّلا
وقـد رفضنــا الأهـل والأموالا والخفِراتِ البيضَ والحِجالا
نرجو بـــه التُّحفـــــةَ والنّــوالا لنُرضي المُهيمـــنَ المفضـــالا[2]

1 ـــ من رُواة تاريخ الطبري . صبّ عنايته على رواية الأحداث الخطيرة التي شهدها ، ابتداءً من يوم كربلا ، ولولاه لضاع شطرٌ كبيرٌ منها . تتبّعْ اسمَه في فهرست أعلام الأجزاء 4و5و7 من الكتاب .
2 ـــ الطبري : 5 / 591 .

سليمان بن صُرّد الخزاعي

(34)

في عين الوردة تقدّم سليمان بن صُرّد الخزاعي يُحرّض الناس على القتال ويُبشّرهم بالفوز . ثم كسر جفن سيفه ، وتقدّم نحو أهل الشام وهو يقول :

إليـك ربّي تبـتُ من ذنوبـــي وقد علاني في الورى في الورى مشـيبي
فارحم عُبيـداً غير ما تكذيـب واغفـــر ذنــوبي ســـيّدي وحـوبــــي

المُسيّب بن نَجَبَة الفزاري

(35)

فأخذ الرّاية المُسيّب بن نَجَبَـة الفزاري { في عين الوردة } وكرّ على القوم وهو

يقول :

قد علمت ميّالـةُ الذّوائــب   واضحـةُ الخدّيــن والتّرائبِ
أنّــي غداة الرّوع والتّغالب   أشجعُ من ذي لبدةٍ مُواثبِ
قصّـاع أقرانٍ مَخوف الجانب[1]

---

1 ـــ نفسه : 5 / 600 .

عبد الله بن مسعود بن نفيل

ثم أخذ الرّاية عبد الله بن مسعود بن نفيل ، وترحّم على سليمان والمُسيّب .
وحمل على القوم وجعل يقول :

(36)

إرحـم إلهـي عبـدك التّوابـا   ولا تؤاخـذه فقــد أنـــابـــا
وفارقَ الأهلين والأحبابا   يرجو بذاك الفوز والثوابا[1]

---

1 ـــ أيضاً .

<u>**الباب الرابع**</u>

أوّلُ ما قيل في شهادة الحسين (ع)

أُم كلثوم

حين اقتربت أُمُّ كلثوم من المدينة جعلت تبكي وتقول :

(37)

مـدينــــةَ جـدّنـا لا تقبلينـــا فبالحسـرات والأحـزان جينـا
خرجنـا منكِ بالأهلين جَمعاً رجعنـا لا رجـــالَ ولا بنينــــا[1]

---

1 ــ عباس القمي : نفس المهموم ، ط. إيران ، لات. / 56 .

عقبة بن عمرو السَّهمي

قال أبو العلاء المعرّي للقاضي أبي يوسف القزويني :

ما سمعتُ شعراً في أمر الحسين بن عليّ رضي الله عنهما يجب أن يُحفظ . فقال القزويني : بلى، قد قال بعضُ أهل سوادنا أبياتاً ، لا يقول مثلها تنّوخ جدُّك الأكبر:

(38)

رأسُ ابــن بنـت محمـدٍ ووصيّــه للمســلمين علــى قنـــاةٍ يُرفــع ُ
والمســلمون بمنظـــــرٍ وبمسمعٍ لا جـازعٌ منهـــم ولا مُتــفجّـــعُ
كُحِلـتْ بمنظــرك العيون عمايــةًًًٌ وأصـــمّ رُزؤُك كـــلَّ أُذنٍ تسـمعُ
أيقظتَ أجفاناً وكنت لها كـــــرىً وأنمتَ عينــاً لم تكُن بك تهجــعُ
ما روضـــــةٌ إلا تمنّـت أنّهـــــا لك تُـربــةٌ ولخطّ قبرك مضجــعُ[1]

---

1 ــ ياقوت : معجم الأدباء ،ط.مصر الطبعة الأولى ،لات . 128/3–29 . وفي أمالي الطوسي : 1 / 92 أنّ الأبيات لعقبة بن عمرو السّهمي . وأنّ الأبيات هي أوّلُ ما رُثي به الإمام .

وقال عقبة بن عمرو السّهمي :

(39)

إذا العينُ قــرّتْ في الحياة وأنـتـمُتخافـون في الدنيــا فأظلـم نورُهــا
مـررتُ على قبـر الحسين بكربـلا ففـاض عليه مـن دموعي غزيرُها
ومــا زلتُ أبكيه وأرثي لشجوه ويُسعدُ عيني دمعُهــا وزفيـــرُهـا
ونـاديتُ من حــول الحسين عصائباً أطــافـتْ بــه مـن جانبيَـه قبـــورُهــــا
ســـلامٌ علـــى أهل القبور بكربـلا وقَـــلّ لهـــا منّـــي السّـــلامُ يـــــزورُهـــــا
سلامٌ بــآصـال العشيّات والضحى تـؤدّيـــه نكبــــاءُ الـــرّياح ونـــــورُهـــا
ولا بـــرح الـــزّوّارُ زُوّارقبـــره يفـوح عليهـم مسكُهـا وعبيـرُهـا[1]

1 ــ مرآة الزمان : 5 / 298 ــ 99 .

سليمان بن قَتّة العدوي التميمي

(40)

مـررتُ علـــى أبيــات آل محمـــدٍ فلـم أرَهــــا أمثالَهـا يـــومَ حلّـــتِ
فـــلا يُبعدُ اللهُ الديـــارَ وأهلَهـــا وإن أصبحـت منهـم برغمـي تخلّــتِ
وإنّ قتيلَ الطّـــفّ من آل هاشــمٍ أذلّ رقـــابَ المُسلميـن فـــذلّــــتِ [1]
وكـانوا غياثـــاً ثـم أضحـوا رزيّــةً لقد عظُمـــتْ تلك الرزايا وجـلّـتِ
وتسـألُنا قيسٌ فنُعطي فقـــيرَهــا وتقتلُنـــا قيـــسٌ إذا النعـــل زلّـــــتِ
وعنـد غنـــيٍّ [2]قطـــرةٌ مـن دمائنــــا سنطلبُهـــا يــومـــاً إذا هـــي حلّــــتِ

ألم تـرَ أنّ الشمس أضحتْ مريضةً   لفقــــدِ حسـينٍ والبـلادَ اقشــعرّتِ [3]
وقـد أعـولت تبكي السماءُ لفقده وأنجمُنـــا نــاحـتْ عليـه وصلّـــتِ[4]

1ـ في أصل ما قاله الشاعر حسب بعض الروايات : (أذلّ رجالاً من قريشٍ) . أمر أحدُ الأئمة ، فيما قيل ، بجعلِها كما أعلاه .
2 ـ في البداية والنهاية : يـزيـد .
3ـ الإصفهاني : مقاتل الطالبيين ،ط.بيروت 1419هـ/1998م / .
4ـ وردت الأبيات مجزؤة في الملهوف / 233 ، فلفّقناها من أدب الطّفّ : 1 / 54 . ومن البداية والنهاية : 8 / 211 . وهي لسُليمان بن قِتّـة العدوي التّيمي . توفي بدمشق سـنة 126هـ . وكان مُنقطعاً إلى بني هاشم. قالها إذ مرّ على كربلا بعد الوقعة بثلاثة أيام .

سليمان بن قَتّة أيضاً

(41)

عينُ جُـودي بعَبـرةٍ وعويـلِ   وانـــدبي إن نـدبـتِ آلَ الرّسـولِ
وانـــدبي تسعةً لصُلب علــيٍّ   قـــد أُصيبــوا وسـتّةٍ لعقيـــلِ
وانـدبي شـيخهم فليس إذا ما   ضُـنّ بالخيـر شـيخهم بالبخيـلِ
واندبي إن ندبتِ عوناً أخاهم   ليس فـيما ينوبـهـــم بـخَذولِ
وسـميّ النبـي غُودر فيهـم   قد علـــوه بصـارمٍ مصقــــولِ
فلعمري لقد أصبتِ ذوي القُـــــــربـى فبكّي على المصاب الطويلِ
فإذا ما بكيتِ عينـي فجـودي   بـدموعٍ تسـيلُ كـلَّ مَســـيـلِ[1]

1 ـ الأبيات كسابقتها لسليمان بن قَتّـة . الخوارزمي : مقتل الحسين ، ط. قم ، مكتبة المفيد لات . : 2 / 152 ـ 53 . ولدى الإصفهاني : مقاتل الطالبيين / 95 ـ 96 روايةٌ مُختلفة للأبيات لا يُمكن أن تكون دقيقة .

أبو الأسود الدؤلي

قال أبو الأسود الدّؤلي (ت : 69 هـ /688م) ينعى شهداء كربلا :

(42)

يا ناعي الدين الذي ينعى التُّقى ... قُم وانعَه والبيتَ ذا الأستارِ
أبني عليٍّ آلَ بيت المُصطفى ... بالطّفّ تقتلهم جُفاةُ نزارِ؟!
سبحان ذي العرش العليّ مكانهُ ... أنّى يُكابره ذوو الأوزارِ
أبني قشيرٍ [1]إنّني أدعوكمُ ... للحقّ قبل ضلالةٍ وخسارِ
كونوا لهم جُنَناً وذودوا عنهمُ ... أشياعَ كلّ منافقٍ جبّارِ
وتقدّموا في سهمكم من هاشمٍ ... خيرُ البريّة في كتاب الباري
بهم اهتديتم فاكفروا إن شئتمُ ... وهمُ الخِيار وهم بنو الأخيارِ[2]

---

1 ـــ واستنهاضه بنو قشيرمن أهل الكوفة خصوصاً أمرٌ غير مفهوم . فقد كان أبو الأسود نازلاً فيهم ، وكانت امرأته منهم . ولكنّ علاقته بهم كانت في غاية السُّوء . كما أنّه هجاهم في أبياتٍ مشهورة ، يظهر منها أنّ سبب الخلاف هو الاختلاف في الرأي والموقف السياسي .

المُهمّ بالنسبة لبحثنا أنّ خطاب أبي الأسود إيّاهم: "كونوا لهم جُنناً "، " تقدّموا في سهمكم من هاشم" ، " بهم اهتديتم " ، وهو الرجل العاقل المُجرّب ، يدلّ على أنّه كان يعلّق عليهم أملاً ما .

2 ـــ ابحث عن المصدر الأساسي . أخذنا الشعرعن ثورة الحسين لشمس الدين/154 .

وقال أبو الأسود :

(43)

أقول وذاك من جزعٍ ووجدٍ ... أزال الله ملكَ بني زيادِ
وأبعدهم كما غدروا وخانوا ... كما بعُدت ثمود وقوم عادِ

هـمُ خشـموا الأُنوفَ وكُـنّ شُمّاً بقتل ابن القعاس أخي مُـرادِ
قتيل السّـوق يا لـك من قتيـــلٍ بـه نصحٌ من احـمرَ كالجَسادِ
وأهـــل نبيّنا مــن قبلُ كانـــــوا ذوي كـــرمٍ دعــــائم للبـلادِ
حسينٌ ذو الجُــدود وذو المعالـي يُـزين الحاضـريـن بكلّ نـادي
أصاب العـزَّ مهلكَـــةٌ فأضحـــى عميـــداً بعد مصرعِه فؤادي[1]

1 ــ مرآة الزمان : 5 / 299 .

وقال أيضـاً :

(44)

أقولُ وذاك مــن جـزعـي ووجـدي   أزال الله ملــــــكَ بنـــــي زيـــادِ
وأبعـــدهم بمــا غـدروا وخـانـــوا   كما بعُـدتْ ثمـــودُ وقـــــوم عادِ
ولا رجعـت كتائبُهُـــم إليهـــــم   إلـى يـــوم القيامـــة والتّـنـــــادي[1]

1 ــ ابن عساكر : تاريخ مدينةدمشق ، ط. بيروت 1415 هـ/1995م : 7 / 216 .

عبد الله بن عوف بن الأحمر الأزدي

وقال عبد الله بن عوف بن الأحمر الأزدي :

(45)

ألا فانـعَ خيـرَ الناس جـدّاً ووالداً حسيناً لأهل الدين إن كنتَ ناعيـــا
ليبكِ حسيناً مُرملٌ ذو خَصاصـــةٍ عديمٌ وإمّا ما تشكـي المـواليـــــــا
فـأضحى حسـينٌ للرّماح دريئـــةً وغُـودر مسلوباً لـدى الطّـفّ ثاويـــا
لِيبكِ حسـيناً كلمـا ذرّ شـــــارقٌ وعند غُسوق الليل مَن كان باكيـــا

لحا اللهُ قومــاً أشخصوهم وغــرّروا
فلـم يُــرَ يـــوم البأس
منهـم مُحاميــــا
ولا مُوفياً للعهـد إذ حَمِس الوغـــى
ولا زاجـراً عنه المُضلّيــن
نــاهيـــــا
فياليتني إذ ذاك كنـتُ شــهدتُـــه فضاربتُ عنه الشّانئين الأعــاديــــا
ودافعتُ عنه ما استطعتُ مجاهداً وأعملـتُ سيفي فيهــمُ
وسـنانيــا
ســـقى اللهُ قبراً ضمّـن المجدَ والتُقى
بغــربيّــةِ الطّــفِ الغمــامَ الغواديــا
فيا أُمّةً تاهت وضلّت سـفاهــةً أنيبوا فأرضــوا الواحـــدَ المُتعاليــا [1]

1ـــ مناقب آل أبي طالب : 4 / 156 .

عُمير بن مالك الخُزاعي

دخل أبو الرُّميح { عُمير بن مالك الخُزاعي } على فاطمة بنت الحسين (ع) ، فأنشدها مرثيّتَه في الحسين (ع) :

(46)

أجالت على عيني سحــائــبُ عَبرةٍ فلم تصحُ بعد الدمع حتى ارمعلّتِ
تُبكّـــي علــــى آل النبـــيّ محمــدٍ وما أكثـرتْ بالدمع لا بل أقلّــــتِ
أولئك قـومٌ لـم يشيموا سيوفَهــم وقـد نكـأتْ أعداءَهم حين سُلّتِ
وإنّ قتيلَ الطّـفّ من آل هاشـــمٍ أذلّ رقـــاب المسـلمين فـذلّــــتِ [1]

1 ـــ المرزباني : أخبار شعراء الشيعة ، ط. بيروت 1388 هـ / 1968م / 31 .

الرّباب زوجة الحسين (ع)

قالت الرّباب بنت قيس بن عديّ ، زوجة الحسين (ع) وأُمُّ ابنته سُكينة ترثيه فتقول :

(47)

إنّ الـذي كان نـوراً يُستضاءُ بـه في كربـلاء قتيلٌ غير مَدفـــونِ
سبطَ النبي جــزاك الله صـالحةً عنّا وجُنّبــتَ خسران الموازينِ
قد كنتَ لي جبلاً صلْداً ألوذ به وكنـتَ تصحبنا بالرّوْح والدينِ
مَن لليتامى ومَن للسّائلين ومَن يُغني ويأوي إليه كــلُ مسكينِ
والله لا أبتغي صهـراً بصهركمُ حتى أُغيّب بين اللحد والطينِ[1]

1 ـــ ابن الأثير : 4 / 36 .

الرّباب زوجة الحسين (ع) تندبُ الإمام ، ومن قولها وهي تندبه :

(48)

واحسـيناً فـلا نسيـتُ حسينـاً أقصدتـه أسـنّةُ الأعــداءِ
غــــادروه بكربـلاء صـريعـاً لا سقى اللهُ جانبي كربلاءِ[1]

1 ـــ نفس المهموم / 78 .

أُم البنين

كانت أُمُّ البنين ، زينب بنت حزام الكلابيّة ، زوجة أمير المؤمنين (ع) ، تخرجُ إلى البقيع لتندب أولادها ، حاملةً حفيدها عُبيد الله ابن ابنها العباس . فيجتمع أهل المدينة لسماعها . وفيهم مروان بن الحكم . وكان من نَدْبها :

(49)

لا تدعونّي ويكِ أُمَّ البنين تُذكّريني بليوث العرين
كانت بنونٌ لي أُدعى بهم واليومَ أصبحتُ وما من بنين
أربعةٌ مثل نُسور الرُّبى قد واصلوا الموتَ بقطع الوتين
تنازع الخُرصان أشلاءَهم فكلّهم أمسى صريعاً طعين
ياليت شعري أكما أخبروا بأنّ عباساً قطيع الوتين

(50)

يا مَن رأى العبّاسَ كرّ على جماهير النّقَد
ووراه من أبناء حيدر كلُّ ليثٍ ذي لبد
أُنبئتُ أنّ ابني أُصيب برأسه مقطوع يد
ويلي على شبلي أمال برأسه ضربُ العَمَد
لو كان سيفٌ في يديه ما دنا منه أحد[1]

1 ــ السّماوي : إبصار العين في أنصار الحسين / 64 .

جعفر بن عفّان الطّائي[1]

(51)

ليبكِ على الأسلام مَن كان باكيا فقد ضُيّعت احكامُه واستُحلّتِ
غداة حسينٌ للرّماح دريئةً وقد نهلتْ منه الرّماح وعلّتِ
وغُودر في الصحراء لحماً مُبدّداً عليه عناف الطير باتت وظلّتِ
فما نصرتهُ أُمّة السّوء إذ دعا لقد طاشت الأحلامُ منهم وضلّتِ
ألا بل محتْ أنواره بأكفّهم فلا سلمت تلك الأكفّ وشلّتِ

وناداهــمُ جُهـداً بحـــقّ محمـــــدٍ فإنّ ابنـــهُ من نفســه حيــث حلّـتِ
فما حفظوا قُربَ الرسول ولارعوا وزلّـتْ بهـم أقدامُهـم واسـتزلّـتِ
أذاقته حــرّ القتـل أُمّـــةُ جـدّه هفـتْ نعلُهـم في كربـلاء وزلّـــتِ
فلا قدّس الرحمـــانُ أُمّـــةَ جـدّهِ وإن هـــي صامــت للإلـــه وصلّـتِ
كمـا فُجعت بنـتُ الرسول بنسلها وكــانــوا كُمـاة الحــرب حين استقلّتِ[2]

1 ــــ أبو عبد الله جعفر بن عفّان الطائي . من شعراء الكوفة . وكان مكفوفاً . وله شعرٌ كثير في المُنافحة عن أهل البيت .
2 ــ أدب الطف : 1 / 192 .

يزيد بن مُفرغ الحميري

وقال يزيد بن مُفرِغ الحميري يُخاطب عُبيد الله بن زياد :

(52)

كـــم يا عُبيدَ الله عندك مــن دمٍ يسـعــى ليُدركــهُ بقتلك سـاعـي
ومعاشــرٍ أُنُـفٌ أبحـتَ دماءهم فـرّقـتَهــم من بعـد طول جَمــاعِ
اذكر حسـيناً وابــنَ عروة هانئاً وبنــــي عقيـل فوارسَ المـربـاعِ[1]

1 ــــ أدب الطّفّ : 1 / 107 .

عُبيد الله بن عمرو الكندي

عُبيد الله بن عمرو الكنـدي ، يرثـي ثلاثةً من الشهداء :

(53)

سعيـد بــن عبـــد الله [1] لا تنسينّه ولا الحـرّ إذ آسـى زهيراً على قَسْـــرِ

فلو وقفت صَمُّ الجبال مكانهم لمارتْ على سهلٍ ودُكّت على وعرِ
فمن قائمٍ يستعرضُ النّبلَ وجهه ومن مُقدِمٍ يلقى الأسنّةَ بالصّدر[2]

---

1 ــــ يعني الشهيد سعيد بن عبد الله الحنفي . والحر هو الرّياحي . وزهير هو ابن القين .
2 ــــ نفسه : 1 / 115 .

عامر بن يزيد بن ثبيط

عامر بن يزيد بن ثبيط العبدي البصري يرثي الإمام الحسين (ع) وأباه يزيد وأخويه . وهم من القِلّة الذين التحقوا بالإمام من أهل البصرة ، بعد أن كتب إليهم من المدينة يُخبرهم بعزمه على الخروج إلى الكوفة ، ويدعوهم لنصرته . ثم قاتلوا واستشهدوا بين يديه في كربلا :

(54)

يا فروُ قومي فاندبي خيرَ البريّةِ في القبور
وابكي الشهيد بعَبرةٍ من فيض دمعٍ ذي درور
وارثِ الحسين مع التّفجّع والتّأوّه والزّفير
قتلوا الحرامَ من الأئمة في الحرام من الشّهور
وابكي يزيدَ مُجدّلاً وابنيه في حرّ الهجير
مُتزمّلين دماءهم تجري على لُبَب النحور
يا لهْفَ نفسي لم تفُزْ معهم بجنّاتٍ وحُور[1]

---

1 ــــ إبصار العين / 190 .

فاطمة بنت الحسين (ع)

(55)

نعق الغـراب فقلـتُ مَــــن تنعـاه ويحـك يـا غـراب ؟
قال الإمـام ، فقُلتُ مَــن؟ قال : المُـوفّـقُ للصـّــواب
قلت : الحسين ؟ فقال لـي بمقـال محـزونٍ أجـــــاب
إنّ الحســين بكـــربــــلا بيـن الأسـنّـة والحِـراب
أبكــي الحسـين بعَبــــرةٍ تُـرضـي الإله مـع الثّواب
ثـم اسـتقلّ بـــه الجناح فلـم يُطِـقْ ردَّ الجـواب [1]

---

1 ـــ قيل أنّ الأبيات هي لأختها فاطمة الصغرى ، التي تخلّفت في المدينة ، ولم تكُن في عِداد مَن شهدن كربلا . انظر : الدر المنثور في طبقات ربّات الخدور ، ط. بيروت 1959 / 56 .

الفضل بن العباس الهاشمي

وقال الفضل بن العباس بن عتبة الهاشمي (ت : 90 هـ / 708 م) يرثي شـهداء كربلا من الهاشميين :

(56)

بكيــــتُ لفقـد الأكـرمين تتابعـوا لوصْـل المنـايــــا دارعين وحُسّـرا
من الأكرمين البيض من آل هاشمٍ لهـم سلفٌ من واضـح المجـد يُذكـرُ
بهــم فجعتنـــا والفواجـعُ كاسمِها تميـمٌ وبكـــرٌ والسّــكون وحميــــرُ
وفـي كــلّ حــيٍّ نضحةٌ من دمائنا بنـــي هاشــمٍ يعلــو سناها ويشــهرُ
فللـــــه محيـــانـــا وكـــان مماتُنـــــا بمُرتـقـبٍ يعلــو عليكم ويظهــــرُ
فسوف يرى أعداؤنا حين نلتقـي لأيّ الفـريقـيَـن النبـــيُّ المُطـهّـــــرُ
مصابيح أمثـــال الأهلّـــة إذ هــمُ لـدى الحـرب أو دفْع الكريهة أبصرُ
أعينيّ إن لـــم تبكيـــا لمُصيـبـتـي فكــلُّ عيــون الناس عنّــي أصبـــرُ

أعينـيَّ جــودا من دموعٍ غزيـــرةٍ فقد حَـقّ إشفاقي وما كنتُ أحذرُ[1]

1 ــ أدب الطف :126/1.

ومن شعر الفضل بن العباس :

(57)

كلمــا أحدثـوا بـأرضٍ نقيقـاً ضمّنــونـا السّجونِ أو سيّرونـا
قتلونـــا بغيـر ذنـبٍ إليهـــم قــاتـل اللهُ أُمّـــةً قتلـــــونـا
مـا رعـوا حقّنـا ولا حفظــوا فينــا وصـاةَ الإلـه بـالأقـربينــا
جعلــونـا أدنــى عــدوٍ إليهم فهـمُ فـي دمائنـــا يسـبحونـا
أنكـروا حقّنـا وجاروا علينا وعلــى غيـرِ إحنـــةٍ أبغضونـــا
غيـر أنّ النبــيَّ منّــا وأنّـــــا لـم نـزل في صِــلاتــهم راغبينـا
إن دعونـا إلـى الهدى لم يُجيبونـــــــا وكانوا عن الهدى ناكبينـــا
فعســى الله أن يُـديلَ أُناســـاً مـن أُنــاسٍ فيُصبحــوا ظاهرينـا
فتقـرّ العيـون مـن قـومِ سُــوءٍ قـــد أخـافـوا وقتّلـــوا المؤمنينـا
من بني هـاشمٍ ومن كلّ حـــيّ ينصـــرون الإسـلام مُستنصرينا
في أُنـــاسٍ آبـاؤهم نصروا الديـــــنَ وكـانـوا لـربّهــم نـاصـرينــا
تحكم المُرهفـاتُ في الهام منهم بـأكُـفّ المعاشـــر الثـائرينـــا
أيـن قتلـى منهـم بغيتـم عليهم ثـــم قتّلتمــــوهم ظـالمينـــا
أرجعـــوا هاشـماً ورُدّوا أبا اليقظـــان وابنَ البديل فــي آخَـــرينــا
وارجعـوا ذا الشهادتيَن وقتلـى أنتـمُ فـي قتالِهم فـاجـرونـــا
ثـــم رُدّوا أبـــا عُميــر ورُدّوا لي رُشـيداً وميثمـــاً والــذينـــا
قُتلـــوا بالطّفوف يـومَ حسينٍ من بنـــي هاشـــمٍ ورُدّوا حسينا

أين عمــروٌ وأيــن بشــرٌ وقتلى معهــم فــي العـــراء مــا يُدفنونــا
أرجعــوا عامـــراً ورُدّوا زهيراً ثم عثمان فارجعـــوا غارمينـــــا
وارجعـوا هـانيــاً ورُدّوا إلينـــا كلَّ مَن قد قتلتـــمُ أجمعينـــا
إن تـــردّوهـمُ إلينـــا ولسـنـا منكـــمُ غيــر ذلكـــم قابلينـــا [1]

1 ـــ إبصار العين / 186 وأدب الطّـفّ : 1 / 154 .

المغيرة بن نوفل الهاشمي

المغيرة بن نوفل بن الحارث الهاشمي كان قد خرج مع الحسين (ع) خروجَه من مكة مُتجهاً إلى الكوفة . فمرض أثناء الطريق . فأمره الإمام أن يرجع فرجع . فلمّا بلغه قتله قال :

(58)

أحزنني الدهـرُ وأبكـانــي والدهـر ذو صُــرفٍ وألــوانِ
أفردني من تسعةٍ قُتّلـــوا بالطّـفّ أضحوا رهـــنَ أكفانِ
وستةٌ ليس لهــم مُشـــبهٌ بني عقيـلٍ خيـرِ فرســـــانِ
والمـرْءُ عونٌ وأخـوه مضى كـلاهمــا هيّــج أحزانــــي
مَـن كـان مسروراً بما نالنا وشــامتــاً يـــوماً فــمِ الآنِ [1]

1 ـــ المرزباني : أخبار شعراء الشيعة / 272 .
وقوله : " فمِ الآنِ " يعني : فمن الآن ، أي فليشمت بنا من الآن ، لأن خسارتهم بمَن قُتلوا بالطّفّ كبيرة ، فشماتة الأعداء حاصلةٌ حُكماً على كلّ حال .

خالد بن المُهاجر

قال خالد بن المُهاجر بن خالد بن الوليد المخزومي في قتل الحسين عليه السلام:

(59)

أبنــي أُميّـة هـل علمتـم أنّنــي أحصيـتُ ما بالطّـفّ من قبـرِ
حسْـبُ الإلـه عليكمُ غضبــاً أبناء جيــش الفتح أو بــــدرِ[1]

---

1 ــــ مقاتل الطالبيين / 150 .

الباب الخامس

المُكتّمات

قال ابنُ طاووس : " رُوي أنّ بعض فضلاء التّابعين لمّا شاهد رأسَ الحسين (ع) في الشام أخفى نفسَه شهراً من جميع أصحابه . فلمّا وجدوه بعد إذ فقدوه ، سألوه عن سبب ذلك ، فقال : ألا ترون ما نزل بنا ، وأنشأ يقول [1]:

(60)

جاؤا برأسكَ يا ابنَ بنت محمدٍ مُترمّلاً بدمائه ترميلا
وكأنّما بك يا ابنَ بنت محمدٍ قتلوا جهاراً عامدين رسولا
قتلوك عطشاناً ولّما يرقبوا في قتلك التنزيلَ والتّأويلا
ويُكبّرون بأنْ قُتلتَ وإنّما قتلوا بك التكبيرَ والتّهليلا[2] "

---

1 ــ المقدمة إلى آخر الأبيات في : الملهوف على قتلى الطّفوف / 211 .

2 ــ نسبها ابن شهرآشوب إلى ديك الجنّ الحمصي (مناقب آل أبي طالب) : 3 / 263 . وليست في ديوانه المطبوع الذي جمعه الملوحي والدرويش ، وبذلا في جمع مادته جهداً مشكوراً . كما أنّ المنظور النّقدي لا يُساعدُ على ذلك .

وفي (الطليعة إلى مشاهير الشيعة) ، ط. بيروت 1422هـ / 2001 م : 1 / 305) أنّها لخالد بن معدان الطائي . وهذه النسبة تتقاطع مع ما قاله ابن طاووس في (الملهوف على قتلى الطفوف) ، أنّها لبعض فُضلاء التابعين ، لأنّ ابن معدان تابعي لعلي (ع) . ونسبه في البداية والنهاية : 8 / 198 "لبعض المُتقدّمين في مقتل الحسين " .

على أنّنا يجب علينا أن نُلاحظ أيضاً ، أنّ من المعروف أنّ خالداً كان من جملة قادة عسكر أمير المؤمنين (ع) في وقائعه . (انظر ابن الأثير : 3 / 367 ، مثلاً) . ولم يُذكَر أنّ له شعر ، في حين أنّ الأبيات تدلّ على شاعرٍ بديع المعاني مُتمكّن . وهكذا لا يبقى في يد الناقد إلا أن ينسقَ الأبيات في جملة المُكتّمات .

{. . . . } عن رجلٍ من أهل بيت المقدس أنه قال :

والله لقد عرفنا ، أهلَ بيت المقدس ونواحيها ، عشيّةً قتْلَ الحسين بن علي . قلت : وكيف ذلك ؟ قال : ما رفعنا حجراً ولا مدراً ولا صخراً إلا ورأينا تحتها دماً عبيطاً يغلي ، واحمرّت الحيطان كالعلق ، ومُطرنا ثلاثة أيام دماً عبيطاً ، وسمعنا منادياً ينادي في جوف الليل يقول :

(61)

أترجو أُمةٌ قتلت حســـيناً   شــفاعة جــدّه يوم الحسابِ
معاذ الله ! لا نلتـــم يقينـاً   شـــفاعة أحمدٍ وأبي تـــرابِ
قتلتم خير من ركب المطايا   وخير الشيب طُرّاً والشبابِ

وانكسفت الشمسُ ثلاثة أيام ، ثم تجلّت عنها وانشبكت النجوم . فلم يأتِ علينا كثيرُ شئ حتى نُعي إلينا الحسين [1].

---

1 ــــ الصدوق : كامل الزيارات ، ط. قم 1429هـ / 160.

عن أُمّ سلمة زوجة النبي (ص) قالت : ما سمعتُ نَوْح الجنّ منذ قبض الله نبيّه إلا الليلة . ولا أراني إلا وقد أُصبتُ بابني الحسين .

قالت : وجاءت جنّيّةٌ منهم تقول :

(62)

أيا عيناي فانهمـلا بجُهـد   فمَن يبكـي على الشهداء بعـدي
على رهطٍ تقودهم المنايــا   إلى مُتحيّــرٍ من نســل عبـــــدِ [1]

---

1 ــ كامل الزيارات / 189 ، ومرآة الزمان : 5 / 295 . ويبدو أنّ المَعنيّ بالمُتحيّر عمر بن سعد ، وبمَن هو "من نسل عبد" عبيد الله بن زياد .

خمسةٌ من أهل الكوفة أرادوا نصر الحسين (ع) ، فعرّسوا [1] بقريةٍ يُقالُ لها شاهي . إذ أقبل عليهم رجلان شيخٌ وشابٌّ فسلّما عليهم .

قال ، فقال الشيخ : أنا رجلٌ من الجنّ ، وهذا ابنُ أخي ، أردنا نصر هذا الرجل المظلوم . قال ، فقال لهم الشيخ الجنّي : قد رأيتُ رأياً . فقال الفتيةُ الإنسيّون : وما هذا الرأي الذي رأيت ؟ قال : رأيتُ أن أطير فآتيكم بخبر القوم ، فتذهبون على بصيرة : فقالوا له : نعم ما رأيت .

قال : فغاب يومه وليلته . فلمّا كان من الغد إذا هم بصوتٍ يسمعونه ولا يرون الشخص ، وهو يقول :

(63)

والله ما جئتكم حتى بصرتُ به بالطفّ مُنعفر الخدّين منحورا

وحوله فتيةٌ تدمى نحورهم مثل المصابيح يملون الدجى نورا

وقد حثثتُ قلوصي كي أُصادفهم من قبل ما أن يُلاقوا الخُرّد الحورا

كان الحسين سراجاً يُستضاء به الله يعلم أنّي لم أقُل زورا

مُجاوراً لرسول الله في غُرفٍ وللبتول وللطيّار مسرورا

فأجابه بعضُ الفتية من الانسيين يقول :

اذهب فلا زال قبرٌ أنت ساكنه إلى القيامة يُسقى الغيثَ ممطورا

وقد سلكتُ سبيلاً كنتُ سالكه وقد شربتُ بكأسٍ كان مغزورا

وفتيةٌ فرّغوا لله أنفسهم وفارقوا المالَ والأحبابَ والدّورا [2]

---

1 ــ نزلوا آخرَ الليل للاستراحة ثم ارتحلوا .

2 ــ كامل الزيارات / 190 ــ 91 . واقرأ الخبر مَرويّاً بنحوٍ مختلف جدّاً ، يمكن القول أنّه الأصل ، قبل أن يُكتم بنسبته إلى الجنّ ، في مرآة الزمان : 5 / 298 .

روى عطاءُ بن مسلم عن أبي جناب الكلبي ، قال : ثم أتيتُ كربلاء ، فقلتُ لرجلٍ من أشراف العرب فيها : بلغني أنكم تسمعون نَوْح الجنّ . فقال : ما تلقى أحداً إلا أخبرك أنه سمع ذلك . قلتُ : فأخبرني ما سمعتَ أنت . قال : سمعتُهم يقولون :

(64)

مسح الرسول جبينه فله بريقٌ في الخـدود
أبواه من عليا قريشٍ جدّه خير الجُــــدود

رواه ثعلب في أماليه .
حدّثنا عمر بن شيبة ، حدّثنا عُبيد بن جناد ، حدّثنا عطاء فذكره [1] .
وقد أجابهم بعض الناس فقال :

(65)

خرجـوا بـهِ وفـداً إليــــــه فهــم لــه شــرُّ الوفـود
قتلوا ابن بنت نبيّهم سكنوا به ذات الخدود[2]

1 ـــ الذهبي : تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام ، ط. بيروت 1410 هـ / 1990م : حوادث ووفيات 61 ـــ 80 / 18
2 ـــ البداية والنهاية : 8 / 200 .

كانت الجنُّ تنوح على الحسين بن علي تقول :

(66)

لمَــن الأبيــات بالطّـــــــف عــلى كُــرهٍ بنينـه
تلك أبيات حسينٍ يتجــاوبن رنينــــــه [1]

1 ـــ كامل الزيارات / 192 .

{. . . .} سمعتُ ليلى (؟) وهي تقول : سمعتُ نوحَ الجنّ على الحسين بن علي وهي تقول :

(67)

ياعين جـودي بالدموع فإنّمـا — يبكـي الحـزين بحـرقـةٍ وتوجّـعِ
ياعيـن ألهـاك الرقـاد بطيبةٍ — مـن ذكـر آل محمـدٍ وتـرجّـعِ
باتت ثلاثـاً بالصعيد جسومهم — بين الوحوش وكلهم في مصـرعِ[1]

1 ــ نفسه / 192 ــ 93 .

بكت الجن على الحسين بن علي فقالت :

(68)

ما ذا تقولـون إن قال النبي لكـم — مـاذا فعلتم وأنتم آخـر الأُمـم
بأهل بيتي وإخـواني ومكـرمتي — ما بين أسـرى وقتلى ضُرّجوا بدم[1]

1 ــ أيضاً / 193 .

{ . . . } إحدى عمّات الحسين (ع) تبكي وتقول : إشهد يا حسين لقد سمعتُ الجنّ ناحتْ بنوحِك وهم يقولون :

(69)

فإنّ قتيل الطـفّ من آل هاشـمٍ — أذلّ رقاباً من قريـش فـذلّـتِ
حبيب رسول الله لم يـكُ فاحشاً — أبانت مصيبتك الأنوف وجلّـتِ

وقلن أيضاً :

(70)

أبكي حســيناً سيّـداً ولقتلـــه شــاب الشـعَر
ولقتلـــه زُلــزلتمُ ولقتلـــه انكسـف القمــر
واحمرّ آفــاقُ السّمـــا بين العشـــيّة والسّحَــر
وتغيّرت شمـــسُ البلاد بهـــم وأظلمت الكُـــوَر
ذاك ابنُ فاطمة المُصاب بـــه الخـــلائقُ والبشـــر
أورثتنا ذلاً بـــه جدع الأنوف مع الغُـرَر[1]

1 ــ أيضاً / 195 ــ 96 . والغُرَر مُقدّم شعر الرأس .

أصبحنا صبيحة قتل الحسين بالمدينة فإذا مولىً / مولاةً لنا تقول : سمعتُ البارحة منادياً ينادي وهو يقول :

(71)

أيهـا القاتلـون جهلاً حسينـاً ابشـروا بالعذاب والتنكيـــلِ
كلّ أهل السماء يدعو عليكم مـن نبـــيٍّ ومُرسَــلٍ وقتـيـلِ
قـــد لُعنتـــم على لســان ابن داوود وذي الروح حامــل الإنجيـل[1]

فكانوا يرون أنّ بعض الملائكة قال ذلك[2] .

1 ــ أيضاً /196. ورواه في مناقب آل أبي طالب :62/4 ، وفي تذكرة الخواص/153، وفي البداية والنهاية : 8 / 198 .
2 ــ مرآة الزمان : 5 / 295 .

داود الرَّقّي ، وهو من أصحاب الإمام الصادق (ع) ، قال : حدثتني جدتي أن الجن لمّا قُتل الحسين بكت عليه بهذه الأبيات :

(72)

ياعين جودي بالعَبَر وابكي فقد حقّ الخبر
أبكي ابن فاطمة الذي ورد الفرات فما صدر
الجن تبكي شجوها لمّا أتى منه الخبر
قُتل الحسين ورهطه تعساً لذلك من خبر
فلأبكينك حرقةً عند العشاء وفي السّحر
ولأبكينك ما جرى عرقٌ وما حمل الشجر [1]

1 ــ تذكرة الخواصّ / 197 .

(73)

نساء الجنّ يبكين من الحزن شجيّاتِ
وأسعدن بنَوْحٍ للنساء الهاشميّاتِ
ويلطمن خدوداً كالدنانير نقيّاتِ
ويندبن حسيناً عظُمت تلك الرّزيّاتِ
ويلبسن الثيابَ السُّود بعد القصبيّاتِ [1]

1 ــ نفسه / 19 .

(74)

أنعى حسيناً هُملا كان حسينٌ رجلا [1]

1 ــ أيضاً .

(75)

عقرتْ ثمودٌ ناقـةً فاسـتؤصلوا   وجـرت سوانحهُم بغير الأسـعدِ
وبنوا رسـول الله أعظم حُرمـةً   وأجـلُّ من أُمّ الفصيـل المُقعَــــدِ
عجبـاً لهم لمّـا أتوا لم يُمسَـخوا   والله يُملــي للـطُّـغــاةِ الجُهّـــــدِ[1]

1 ـــ ابن كثير : البداية والنهاية : 6 / 231 ، ومرآة الزمان : 5 / 295 .

لمّـا قُتل الحسين ناحت عليه الجن فقالوا :

(76)

يا ابن الشهيد ويا شهيداً عمُّـهُ   خيـر العُمـومـة جعفــر الطّيّـار
عجبـاً لمصقـولٍ أصابك حدّهُ   في الوجـه منك وقد علاه غبارُ[1]

1 ـــ الملهوف / 29 .

(77)

ومن نواح الجنّ أيضاً :

أيا عينُ جـودي ولا تجمُــدي   وجـودي علـى الهالـكِ السّـيّـدِ
فبالطّـفّ أمسـى صريعاً فقـد   رُزئنـــا الغـداة بأمــرٍ بـــــدي[1]

1 ـــ نفسه .

(78)

ومنه ، أي من نواح الجنّ :

إنّ الرّماح الواردات صدورها نحو الحسين تُقاتل التنزيــلا
فكـأنّما قتلــوا أبــاك محمــــداً صلّـى عليـه الله أو جبريــــلا [1]

1 ــ أيضاً

روى ابنُ عساكر، أنّ طائفةً ذهبوا في غزوةٍ إلى بلاد الرّوم ، فوجدوا في جدار كنيسةٍ هناك مكتوباً :

(79)

أترجو أُمّـــةٌ قتلـت حسيناً شفاعةَ جدّه يوم الحسابِ

فسألوا الراهبَ عن السطر ومَن كتبه ، قال : مكتوبٌ ها هنا من قبل أن يُبعث نبيكم بثلاثمائة عام [1] .

1 ـــ البداية والنهاية : 8 / 200 .

رثاء أعشى همْدان شهداءَ التّوّابين

(80)

ألَـمّ خيــالٌ منكِ يا أُمّ غالــبٍ فحُييـتِ عنّـا من حبيـبٍ مُجانـبِ

إلى أن يقول :

فإنّي ، وإنْ لم أنســهُنّ ، لَذاكرٌ رزيئـةَ مِخبــاتٍ كريـم المنــاصـبِ[1]
توسّل بالتقوى إلى الله صادقاً وتقوى الإله خير تكساب كاسبِ
وخلّى عن الدنيا فلم يلتبـس بهـا وتـــاب إلــى الله الــرّفيـــع المَراتـبِ
تخلّى عن الدنيا وقـــال اطّرحتُها فلســـتُ إليهـا ما حُييـــتُ بـآيــــبِ

وما أنا فيما يكره الناسُ فقْدَه ويسعى له السّاعون فيها براغــبِ
فوجّهه نحو الثّويّـــةِ سائــراً إلى ابن زيادٍ في الجُمــوع الكتائبِ
بقومٍ همُ أهلُ التّقيّةِ والنُّهى مصاليتُ أنجــادٌ سُــراةُ مناجبِ
مضوا تاركي رأيَ ابنِ طلحة حِسـبَةً
ولم يسـتجيبوا للأميـرِ المُخاطِــبِ
فساروا وهم ما بين مُلتمس التُّقـــى
وآخَـرَ ممّـا جـرّ بالأمـس تائــبِ
فلاقوا بعين الوردةِ الجيشَ فاصــلاً
إليهــم فحسّوهم ببِيضٍ قواضبِ
يمانيّةٍ تـذري الأكُـفَّ وتــارةً بخيلٍ عِتاقٍ مُقرَباتٍ سـلاهـــبِ
فجاءهم جمْعٌ من الشام بعده جُموعٌ كموج البحر من كلّ جانبِ
فما برّحــوا حتى أُبيــدت سُـراتُهـم
فلم ينــجُ منهم ثَــمّ غيرُ عصائـــــبِ
وغُودر أهلُ الصّبر صرعــى فأصبحوا
تُعاورهم ريــحُ الصَّبـا والجنائــب
فأضحــى الخزاعـيُّ الرئيس مُجـــدّلاً
كــأن لــم يُقاتــل مــرةً ويحــــارب
ورأس بني شــمخٍ وفــارس قــومــه
شَنوءة والتّيمــيّ هــادي الكتــائــب
وعمرو بن بشرٍ والوليــد وخالـــدٌ
وزيد بن بكـرٍ والحُليـس بـن غالـب

وضاربَ من همْدان كلُّ مُشيّعٍ إذا شـدّ لم ينكــل كريـم المكاسـب

ومن كل قوم قـد أُصيب زعيمهـم
وذو حسـبٍ في ذروة المجـد ثـاقب
أبوا غير ضربٍ يفلق الهامَ وُقْعُــهُ
وطعـنٍ بأطـراف الأسنـّة صـائب
وإنّ سعيداً يوم يَدْمُرُ عامـراً لأشــجع من ليــثٍ بدرب مُواثــب
فيا خير جيـشٍ في العـراق وأهلـه
سُــقيتم روايـا كـل أسـحم سـاكـب
فإنْ يُقتلوا فالقتل أكرمُ ميتـةٍ وكــلٌّ
فتىً يـومــاً لإحدى الشّواعبِ
وماقُتلوا حتى أثاروا عصابةً مُحلّين نـــوراً كاللُّيـوث
الضّــواربِ[2]

---

1 ــ يعني بهذه االأوصاف وما بعدها سليمان بن صُرّد الخزاعي .
2ــ الطبري : 5 / 608 ــ 609 .
قال : "وهي إحدى المُكتّمات ، كُنّ يُكتَمن في ذلك الزمان " ، وابن الأثير : 4 / 186 ــ 89 . قال : "وهي { يعني القصيدة } ممّا يُكتَم في ذلك الزمان" . ولذلك نسقناها في المُكتّمات ، مع أنّها منسوبَةٌ إلى ناظمها .

ورُوي أنّ الذين قتلوه { الإمام الحسين (ع) } رجعوا فباتوا وهم يشربون الخمر ، والرأس معهم . فبرز لهم من الجدار قلمٌ من حديد ، فرسم لهم في الحائط بدمٍ قانٍ هذا البيت :
أترجـو أُمّـةٌ قتلـت حسينـاً شفاعةَ جـدّهِ يـوم الحسـابِ [1]

---

1 ــ نفسه .

لمّا قُتل الحسين وُجد حجرٌ مكتوبٌ عليه :

(81)

لا بُــدّ أن تـردَ القيامـةَ فاطـمٌ   وقميصُها بــدم الحسين مُلطّــخُ
ويلٌ لمَــن شُــفعاؤه خُصماؤهُ   والصّــور في يوم القيامة يُنفَــخُ [1]

1 ـــ ينابيع المودّة / 331 .

إنشاد أهل الرقّة في رثاء الحسين

الإمام الصادق (ع) يقول لصاحبه إبراهيم المكفوف الرّقّي { موسى بن عُمير ، أو ابن أبي عُمير[1]} : أنشدني كما تُنشدون ، يعني في الرقّة ، قال فأنشدته :

(82)

امــرُرْ على جدث الحسين   فقُل لأعظمه الزّكيّـــة[2]

1 ـ الترجمة له في رجال الطوسي في أصحاب الإمامين الباقر و الصادق (ع) .
2 ـــ كامل الزيارات / 208 . والبيت من قصيدةٍ مشهورة للسيّد الحميري .

أبو هرون المكفوف[1]

أبو هرون المكفوف الرّقّي ، قال : دخلتُ على أبي عبد الله { الصادق (ع) } فقال لي : أنشدني ! فأنشدتُه . فقال : لا ! ، ولكن كما تُنشـدون { يعني أهل الرَّقّة } وكما ترثيه عند قبره . قال : فأنشدته :

أُمــرُر عــلى جــدث الحسـين   فـقُـلْ لأعـظُـمــه الزّكيّـــة

قال : فلمّا بكى أمسكتُ . فقال : مُــرّ ! { أي تابع الإنشاد } فمررت . ثم قال لي : زدني ! زدني ! . قال فأنشدت :

(83)

يا مريـم قومي فاندبـــي مولاكِ   وعلى الحسين فاسعدي ببُكاكِ[1]

1 ــ نفسه / 210 ــ 11 . والظاهر أنّ الخبر السابق مجزوءٌ عن هذا . وإنّما كرّرنا روايته لِما بين الخبرَين من اختلاف في تفصيلاتٍ ذات مغزى .

الباب السادس

يــزيـد

قال القاسم بن عَـديّ : قيل ليزيد بن معاوية أنّ القوم { يعني موكب السبايا } قد أتوا . فصعدوا إلى مَنظرةٍ له لينظر إليهم . فلمّا أقبلوا أنشد بيتيَن :

(84)

لمّـــــا بـدتْ تلـك الحُمـول واشـرقتْ تلك الشُّموس على رُبى جيرونِ
نعـق الغـراب فقلتُ صِحْ او لا تصِحْ فلقــد قضيـتُ من الغريم ديونـي[1]

1 ــ مرآة الزمان : 5 / 287 . وفي بعض المصادر المُتأخّرة (الحسين) بدلاً عن (الغريم) .

وأُقيموا { النساء والأطفال } على درَج باب الجامع ، حيث يُقامُ السّبي . وأنشأ يزيد ينظر إليهم ويقول :

(85)

صبـرنـا وكـان الصّبـرُ منّـا عزيمـةً وأسـيافنا يقطعن هامـاً ومعصمـا
أبى قومُنـــا أن يُنصفونا فأنصفتْ قواضبُ في أيماننا تقطرُ الدّمــــــا
نُفلّق هـامـاً مــن رجــالٍ أعــــزّةٍ علينــا وهـم كانـوا أعـقّ وأظلمــا

وأمـر بالرأس أن يُصلبَ بالشام [1]

1 ــ الخوارزمي : مقتل الحسين : 2 / 61 ، واليافعي : مرآة الجنان وعبرة اليقظان ، ط. حيدر آباد الدّكَن سنة 1390 هـ / 1970م : 1 / 135 (اختصّ برواية ما بعد الأبيات) ، والمناقب لابن شهرآشوب : 2 / 326 .
والأبيات ليست ليزيد ، بل هي للحُصين بن حمام ، تمثّل بها يزيد .

لمّا كان من أمر أبي عبد الله الحسين (ع) الذي كان ، انصرف عمر بن سعد بالنّسوة والبقيّة من آل محمد (ص) ، ووجّههنّ إلى ابن زياد ، فوجّههنّ هذا إلى يزيد بن معاوية. فلمّا مثلوا بين يديه أمر برأس الحسين (ع) فأُبرز في طست ، فجعل ينكثُ ثناياه بيده وهو يقول :

(86)

يا غـراب البين أسمعـتَ فقُـل   إنّمـا تـذكـر شيئـاً قد فُعـــل
ليـت أشـياخي ببـدرٍ شـهــدوا   جزعَ الخزرج من وقْع الأسَـل
حيـن حكّت بقبـاءٍ بَـرْكَـهــــا   واسـتحـرّ القتلُ في عبد الأشلّ
لأهلّـوا واستهلّـوا فَـرَحـــاً   ثم قالـوا يا يزيـــدُ لا تُشــلّ
فجـزينــاهــم ببـــدرٍ مـثلَهــا   وأقمنـــا مَـيْلَ بـدرٍ فاعتــــدل
لسـتُ للشـيخييَن إن لم أسـتـثِـر   من بنـــي أحمـدَ ما كان فـعـل[1]

1 ـــ أحمد بن أبي طاهر : بلاغات النساء / 25 ، ط. بغداد 1389 هـ . وأصلُ الأبيات لعبد الله بن الزّبعري قبل إسلامه ، قالها يوم أُحُد . وهي من ستة عشر بيتاً ، أخذ يزيد بعضها ، وأضاف إليها وعدّل بعضها بما يُناسب ما يريد منها . ومنه البيتان الرابع والسادس .

قال الشّعبي : لمّا دخلت نساءُ الحسين على نساء يزيد قُلن : واحسيناه ! . فسمعهنّ يزيد فقال :

(87)

يـاصيحــةً تُحمَـدُ مــن صـوائـحِ   مــا أهون الموت علـــى النّوائحِ [1]

1 ـ تذكرة الخواصّ / 150 .

استدعى يزيدُ ابنَ زياد إليه ، وأعطاه أموالاً كثيرة وتُحفاً جليلة . وقرّب مجلسه ورفع منزلته . وأدخله على نسائه ، وجعله نديمَه .
وسكر معه ذات ليلة . فقال للمُغنّي : غنِّ :

(88)

اسقني شَربَةً تُروّي فؤادي ثم مِلْ فاسقِ مثلَها ابنَ زيادِ
صاحبَ السّرّ والأمانة عندي ولتسديد مغنمي وجهادي
قاتِل الخارجيّ أعني حسيناً ومُبيد الأعداء والحُسّادِ[1]

1 ـ تذكرة الخواص / 164 .

يزيد يعتذر إلى أهل المدينة من قتل الحسين

دخل ابنُ دأب { عيسى بن يزيد بن دأب الليثي (ت : 171 هـ / 787 م) }
على عيسى بن موسى عند مُنصرَفه من فخّ ، فوجده واجماًيلتمس عذراً لقتل مَن قَتَل . فقال له : أصلح الله الأمير ، أُنشدك شعراً كتب به يزيد بن معاوية يعتذر فيه إلى أهل المدينة من قتل الحسين بن علي عليهما السلام ؟ . قال : أنشدني ، فأنشده :

(89)

يا أيها الرّاكب الغادي لطيّته على عُذافرةٍ في سيرها قُحَمُ
أبلغ قريشاً على شَحْط المزار بهابيني وبين حسين اللهُ والرّحمُ
وموقفٌ بفناء البيت أُنشدُهُ عهدَ الإله وما يُرعى به الذّممُ
عنفتمُ قومَكم فخراً بأُمكمُ أُمٌّ حَصانٌ لعمري بَرّةٌ كَرَمُ
هي التي لا يُداني فضلها أحدٌ بنتُ الرسول وخير الناس قد علموا
وفضلها لكمُ فضلٌ وغيركمُ من قومكم لهمُ في فضلها قسمُ

إنــّي لأعلمُ أو ظـنـّــاً كعالمـــه والظـنُّ يصـــدق أحيانــاً فينتظـــمُ
أنْ سوف يترككم ما تطلبون بها قبلي تهــاداكــم العُقبــان والرّخَـمُ
ياقومنا لاتُشهّوا القومَ إذ خمدت ومسّكوا بحبال السَّلْم واعتصموا
قد جرّت الحربُ مَن قد كان قبلكمُ من القُـــرون ، وقد بـــادت بهـــا الأُمـــمُ
فأنصفوا قومكم لا تهلكوا بذخاً فـرُبّ ذي بــذخٍ زلّت بــــه القدمُ
قال ، فسُـرّي عن عيسى بعض ما كان فيه [1] .

---

1 ــ ياقوت : معجم الأُدباء ، ط. مصر ، دار المأمون ، لات . : 6 / 156 . وساق ابنُ كثير الأبياتَ نفسَها ، ولكن بمنحىً مختلف ينظرُ إلى الآتي ، وليس على سبيل الاعتذار بعد الوقعة . انظر : البداية والنهاية : 8 / 164 .

نهايــةُ يزيــد

ولمّا بلغ سَلْمَ بن زياد وهو بخراسان ،موتُ يزيد وابنه معاويةكتم ذلك . فقال ابنُ عَـرَادة :

(90)

يا أيّهــا المـلـكُ المُغَـلّـق بابَـــه حـدثـت أُمـورٌ شـأنهـنّ عظيـمُ
قتلـى بحـرّةَ [1]والذيـن ببابـلٍ[2] ويزيـدُ أُعلـن شـأنُـــه المكـتـومُ
أبنــي أُميّـةَ إنّ آخـرَ مُلككم جسـدٌ بحوّارين[3] ثـَـمّ مُقيــــمُ
طرقت منيّتُـه وعند وِساده كـوبٌ وزِقٌّ راعـفٌ مَـركـــومُ
ومُـرِنّـةٌ تبكـي على نشوانةٍبالصُّبح تقعدُ عندها وتقـــومُ[4]

---

1 ــ وقعة الحرّة المشهورة في المدينة سنة 63 هـ .
2 ــ لدى الطبري : 4 / 545 (بكابل) . والمُتعيّن أنها مُصحّفة عن (بابل) ، و هو الاسم التاريخي

للبقعة التي قُتل فيها الإمام ، قبل أن يستقرّ الاسم على الأرض الحَزْنَة ، ذات الحجارة لِما فيها من خرائب تاريخيّة ، التي تُجاور المقبرة النّبطيّة القديمة ، واسمها الآراميّ (كربولا)، الذي آل فيما بعد إلى اسمِها الحالي (كربلا).

3ــ ماءٌ في البادية بجوار تدمر ، بات اليومَ قريةً بالاسم نفسه .

4 ــ الطبري : 5 / 545 وابن الأثير : 4 / 154 ــ 55 . والأبيات وردت في المصدر ضمن أخبار السنة 64 هـ . وكان ابن الأثير قد قال قبلُ :" وفي هذه السنة توفي يزيد بن معاوية بحُوّارين من أرض الشام لأربع عشرة خلت من شهر ربيع الأوّل " (نفسه : 4 / 125) . لاحظ أنّ ابن الأثير قال : " توفي يزيد " . مع أن الشعر نصّص على أنّه قُتل قتلاً . وذلك أمرٌ له مغزاه . وقال الطبري : 5 / 545 : " لمّا ظهر شعرُ ابن عرادة أظهر سَلَم { بن زياد أميرُ خراسان } موتَ يزيد بن معاوية ومعاوية بن يزيد " . وسنقفُ على مؤدّى هذه المُلابسات في الفصل الثاني .

<u>الفصل الثانـي</u>

قـراءةٌ في الـدّلالات والمَغـازي

(1) هذا الفصل ، لماذا ؟

(2) الكوفة المدينـة القاتلة .

(3) في (أصداء يوم كربلا في المدينـة) .

(4) في (شعر الندم) .

(5) في (أوّل ما قيل في رثاء الحسين (ع) .

(6) في (المُكتّمات) .

(7) في (يزيـد) .

(تمهيـد)

(1) هذا الفصل ، لماذا ؟

بُغيتُنا في هذا الفصل ، أن نستبطنَ مادّةَ الديوانَ الذي جمعناه واستوعيناه في الفصل الأوّل ، عسى أن يُبيّنَ لنا ما كتمته الأزمان والقرون ، من صنوف التفاعُل التي جدّت بين الحدَث الكربلائي وبين مُعاصريه الذين اكتووا بناره . إنْ على مستوى الارتكاس البشري الغريزي انفعالاً (غضب ، حزن ، أسف ، ندم) ، أو فهماً وتحليلاً ذهنيّاً ، يرمي بنظره إلى تداعيات الحَدَث ، وإلى الهَوْل الآتي ، بعد أن أسقطت السُلطةُ بما ارتكبت من فظائع كلَّ الحُرُمات . وإنْ على مستوى الأحداث المُتراكبة ، التي كان الحدثُ الكربلائي بمثابة البادئ لها .

(2) كربلا تتفاعل

كانت كربلا وما تلاها زلزالاً حقيقيّاً ، وبكلّ ما للكلمة من معنى . والزلزال من شأنه أن يكشفَ الشُّروخ الخفيّة الكامنة في طبقات الأرض السّطحيّة والعميقة . كذلك كربلا ، كشفت شروخاً سياسيّةً واجتماعيّةً ، كانت من قبلها غير ملحوظَـةٍ ولا عاملة في الحالة السُّكونيّة القائمة ، التي كانت محروسةً وممسوكةً بقوّةٍ وبكامل العناية والسّطوة من قِبَـل السُلطة . فجاءت كربلا بكلّ ثقلِها ورهبتها لتُحرّرها ، ثم لتُطلق تفاعُلاً مُتسلسلاً خلاّقاً ماكان له أن يبدأ لولاها . ثم كان من (فضل) مهندسِ المذبحة ، ومن مَكْرِ الله تعالى به ، أن تابع إيقادَ تفاعلِها بكانل الأمانةِ والهمّة ، بما ارتكبه من سَوْق رؤوس الشهداء ونسائهم وأطفالهم واستعراضهم في البلدان . وبذلك نشر ، من حيث لم يقصُد ، تأثيرَ وأصداءَ المأساة الرهيبة حيث لم يكُن من الممكن أن تصِلَ إليه بنفسِها بكامل قوتها .

(3) دور الشعر

هكذا بدأ تفاعُلٌ خلاّقٌ جديدٌ ، وقودُهُ الغضب والحزن والأسف والنّـدم . ضمن غلافٍ من الرُّعب من هَوْل ما جرى ، ومن الخوف من الآتي ، قياساً على ذلـك

الذي جرى . تلك مشاعر وارتكاساتٌ بشريّةٌ ليس من شأن المؤرّخ أن يضعها ضمن دائرة اهتمامه ، وليس من وظيفته أن يصفها وأن يسجّلها . إنّها حصْراً قضية ومُهمّة الشّـاعر والشعر والكلمة الشّعريّة ، المُعزّزة بالموسيقى الشّعريّة (الوزن والبحر والقافية) . ليس ، بالاعتبار الأوّل ابتغاء جعلنا نفهم ، بل لكي يُحرّك خيالنا ويُحرّضنا ويُعدينا بما عمرَ نفسَ الشاعر لحظةَ نطق بشعره . أي لكي يجعلنا نحزن لِما أحزنه ، ولنتألّم لِما آلمه ، ولنأسف لِما أسف له ، ولنرتعب ممّا أخافه .

(4) الوُجدان ودوره في فهم الحَدَث

تلك أُمورٌ لا تُفصحُ عن نفسها إلا لامرئٍ ينظر إليها من موقع وُجدانه الشخصي . أي لإنسانٍ يعرف مَن هم العترة ، ومَن هو الحسين (ع) بوصفه أحد العترة وسبط رسول الله (ص) وريحانته ، ومَن هو من رسول الله ورسول الله منه ، كما جاء في الحديث المشهور . ولماذا ضحّى بنفسه وبأُسرتَه وبأصحابَه عامِداً قاصداً ، ناظراً إلى أنّ التّضحية مهما عظُمت فإنّها تبقى أدنى من الشهادة وممّا رمى إليه بها .

امّا مَن هو محرومٌ من ذلك الوُجدان ، ينظر إلى كربلا من ضمن سياقٍ تاريخيّ سطحيّ ، فإنّه حتماً لن يرى منها إلا أنّها صراعٌ على السُلطة . بل إنّه إذا كان ممّن يحمل مفهوماً للشّرعيّة مبنيّاً على الغَلَبَة ، كما هو شأن الكثيرين من المُتفيقهين السُلطويين ، فإنّه سيصِلُ بالضرورة إلى مثل ما وصل إليه ذلك الغبي حيث قال : " قُتل الحسينُ بسيف جدّه " .

قيمة ما استوعيناه من شعر أنّه يرجعُ بنا إلى لحظة الحدث الكربلائي ، حين كان الجرح ما زال ينغرُ بالدّم ، وحين كانت النفوس تحت وطأة الصّدمة . أو بالمُقابل ، لدى السُلطة وصنائعها ، تحت وطأة تأثيرها الآني المُتغيّر ، من نصرٍ وهميّ إلى كارثةٍ مُحقّقَة .

الباب الأوّل

الكوفة المدينة القاتلة

(1)هُويّتها المُتقلّبة

هذه المدينة ذات الالتباسات التي لا تنتهي ، والمزاج السياسي المُتقلّب الذي لا يستقرّ على حالٍ من الأحوال .

قدّمتْ زهرة أبنائها أمامَ أمير المؤمنين علي (ع) ومشروعه السياسي ، خصوصاً يوم صفّين ، وما أدراك ما صفّين . بحيث أنّها باتت أو كادت تغدو على حافّة ما يُسمّى بالفشل السُكّاني ، بمن فقدتهم من نسبةٍ عاليةٍ من الرجال المُقاتلين الذين هم في سنّ الإنتاج والعمل .

ثم إذ بها ، بفاصل زُهاء عقدين من السنين فقط ، تحشدُ لقتال وقتْل ابنه ، إمامُها بعد أخيه ، ثم التّمثيل بجسده الشريف وطأً بحوافر الخيول ، وسَوْق نسائه في البلدان سَوْقَ السبايا .

ثم إذ بها ثانياً ، مُمثّلةً بنخبةٍ مُختارةٍ من رجالها من كبار الشيعة التاريخيين من أهلها ، تُحاول النهوضَ من كبوتها الفظيعة ، بأن تعلن النّدم والاستغفار و(التوبة) عمّا جنته يداها . وذلك بالمُبادرة بقرارٍ منها ولحسابِها إلى ارتكاب حربٍ تفتقر إلى الشرعيّة ، لا لأنّها ظالمةٌ في حربها ، بل لأنّ الحرب التي أعلنتها تفتقرُ إلى القرار السياسي ممّن هو له حصراً . فضلاً عن أنّها ما من غرض سياسيّ مُعلَن ومقبول منها ، ثم لأنّه ما من أدنى أملٍ بالنصر فيها .

ثم إذ بها ثالثاً تلتئم التآمَها يومَ كربلا ، مع فيضٍ إضافيٍّ من الحماسة . لكنّها هذه المرّة وراء شعار الثأر والاقتصاص ممّن باشرقتل الإمام . مع أنّها بقضّها وقضيضها شريكةٌ بالجريمة الفظيعة ، إنْ بفعل القتال والقتْل وما تلاه ، وإنْ بالخذلان وبالتنكُّر لِما قطعته لإمامها الشهيد من عهود ووُعود . لا نستثني منها إلا تلك الأقليّة النّبيلة التي وقفت مع الإمام حتى الشهادة .

(2) في خلفيّة الانقلابات

تلك الانقلابات الجذريّة في الأعمال ، وطبعاً فيما خلفها من مواقف ، وبما ورائها من غيابٍ كاملٍ للتقوى وللرؤية السياسيّة الشرعيّة ، أو كما قد يُقال : السياسو ــ شرعيّة ، قد توالت من إلى في غضون خمس سنوات فقط ، هي ما بين يوم كربلا سنة 61 هـ ، وبين حركة الأخذ بالثأر سنة 64 هـ . مُروراً طبعاً ببدعة (التوبة) والاستغفار بذلك النحو البِدْع بينهما . الأمر الذي يدفع المؤرخ إلى طلب تفسيرٍ لذلك التذبذُب، لسنا نراه خبيئاً في غير البُنية البشريّة للمدينة .

فلماذا وأنّى آلَ أمرُ الكوفة إلى أنْ تكونَ على هذه الدرجة من الافتقار إلى التّثبُّت والثّبات ؟

القراءةُ العميقةُ لمادة الباب الأوّل من الديوان (**التيّارات العاملة في الكوفة يوم كربلا**) تُرينا كم كانت التركيبة البشريّة للمدينة ، التي حشدت بالآلاف لقتال الإمام ، شوهاء هشّةً حافلةً بالانشقاقات والشّروخ العميقة .

ما من تجمّعٍ بشريّ مكانيّ في الدنيا مُتجانسٌ كلَّ التجانُس . نعم ، وبالتأكيد ! ولكن حين يُصرّح امرؤٌ بشعره عن هواه ومُحركاته السلوكيّة السياسيّة ، فهذا يدلُّ غالباً على أنّه ينتمي إلى قاعدة مُماثلة ومُتمثّلة في المُحيط .

هكذا فعندما يقولُ قاتلُ القارئ بُرير بن خضير الهمْداني :

فجرّدتُه في عُصبةٍ ليـس دينـهم بديني وإنّي بابن حـربٍ لقـانـعُ

ثم يُخاطبُ ابنَ زياد وعَبْرَه السُلطة المركزيّة بدمشق بقوله :

فأبلِـغ عُبيـدَ الله إمّـا لقيتَـه بأنـّي مُطيـعٌ للخليفـة سـامـعُ[1]

فإنّ أقلّ ما يعنيه ذلك ، أنّ صاحبَ هذا الكلام القاطِع ليس حالةً فرديّةً شاذّةً

---

1 ــ انظر النصّ الشعري رقم (2) في (الديوان) . وسنُرجعُ الشّواهد الشّعريّة إلى موضعها من الديوان في الآتي بهذا النحو : الديوان ، ثم رقم النصّ .

في البيئة من حوله . بل أنّه يُمثّل على الأقلّ قَطْعاً حادّاً في مروحة الأهواء المُتمثّلة في البُنية البشريّة للكوفة . ترى أنّ السُلطة ، حتى بعد أن ارتكبت ما ارتكبته من فظائع مهولة ، هي الشّرعيّة وما تزال الشّرعيّة . وأنّ مَن يُعارضها هو خارجٌ على الشّرعيّة "ليس دينهم بديني" . وأنّه بعدُ "مُطيعٌ للخليفة سامعُ" . بينما الإمام الحسين (ع) ومَن معه عاصون غير سامعين [1]. فكأنّنا في هذا أمامَ حالةٍ ممّا نُسميه اليوم(التكفير) ، بما يعنيه من تسويغٍ لقتال وقتل المُخالف .

يؤيّد ذلك أن ابن زياد ، على أثر أن ضمّ إليه يزيد الولايةَ على الكوفة ، دخلها مُتنكّراً وحيداً أو في جمعٍ صغير . ومع ذلك فإنّه ، ما أن استقرّ به المقام في قصر الإمارة ، حتى أمر فَنودي : الصلاة جامعة . فاجتمع الناس[2]. ثم أنّه سرعان ما شكّل من أهلِها قوةً قتاليةً، ستكون نواة القوّة الأكبر ، التي اتجهت إلى نِينَوي ، حيث جعجع الحرُّ الرّياحي بالحسين (ع) وأصحابِه .

وممّن يُمثّل هذه الشّريحة الكوفيّة تمثيلاً حادّاً ، العشرةُ النّفَر الذين استجابوا لنداء عمر بن سعد : مَن ينتدب للحسين فيوطئه فرسه ؟ . ومنهم الأخنس بن مرثد الحضرمي ، الذي قال فيما بعد مُتفاخِراً دون حياء :

نحن رضضنا الظّهرَ بعد الصّدرِ بكلّ يعبوبٍ شديد الأسْرِ[3]

كلٌّ ذلك يدلُّ دلالةً قاطعةً على عُمق الاختراق السُلطوي الأُموي لبُنية الكوفة كما عهدناها من قبل . وأنّ ابن زياد حينما اتجه من البصرة إلى الكوفة ، بالنحو المُستخفّ

---

1 ــ قال يزيد بن زياد الكندي ، رسولُ ابن زياد برسالةٍ إلى الحرّ الرّياحي ، جواباً له عن السؤال عمّا جاء به : "**أطعتُ إمامي ووفيتُ ببيعتي**" .(الطبري : 5 / 408) . وكان من الممكن أن يقول ، مثلاً ، أنّه مُكلّفٌ بأداء رسالة . فلجؤه إلى هذا المنطق بالذات له مغزاه غير الخفيّ .

2 ــ الطبري : 5 / 359 .

3 ــ الديوان / 16 .

الذي وصفناه ، كان يعرف ويعتمد على وجود قاعدةٍ قويّةٍ لسادته الأُمويين فيها ، ستلتفُّ حوله بمجرّد دخوله المدينة ، كما حصل بالفعل . ولا نغترّنّ هنا بما تقوله المصادر عن الأعداد الهائلة التي سارعت إلى مُبايعة مسلم بن عقيل من أهل الكوفة[1] . فما أُولئك إلا أبناء اللحظة ، الذين يميلون مع الريح حيث تميل. ومن هنا رأيناهم ينفضّون عنه بالسرعة التي التفوا بها من حوله . وربما ، بل الأرجح ، أنّ منهم مَن التحق بمعسكر ابن زياد المُتّجه إلى قتال الحسين (ع) .

(3) الكوفة تنحدر

بوصفنا مؤرخين نتمعّن في ما جريّات تلك الأيّام ، فإنّنا نظنُّ أنّ الكوفة قد انحدرت إلى هذا المُستوى عَبر درجاتٍ ثلاث :

ــ الأُولى : الانهيار السياسي ــ العسكري في فريق الإمام أمير المؤمنين (ع) ، الذي بدأت إماراتُه تظهر في الخاتمة البائسة لصفّين ، بمجرّد أن تفادى معاويةُ الهزيمة المُحقّقة برفع المصاحف على رؤوس الرماح . حيث ضاعت بلحظة دماءُ عشرات الأُلوف من الشهداء . ثم توالى زمن خلافة الإمام الحسن (ع) ، وألجأه إلى تسليم السُلطة مؤقّتاً إلى معاوية ، والانكفاء إلى

المدينة بانتظار وفاة هذا . لكنّ معاوية كان يُدبّر اغتيالَه ، كما حصل بالفعل . رامياً بذلك إلى إحباط أمل الناس باستعادته الخلافة ، كما قضت إحدى بنود الصُّلح .

ــ الثانية : ما أن اطمأنّ معاوية من جانب الإمام الحسن (ع) ، حتى صرف جهدَه إلى عقاب الكوفة ، ابتغاء إحباطها بحيث تغدو عاجزةً عن التّصدّي لمراميه ،

---

1 ـــ يقول الطبري : 5 / 348 أنّ عدد الذين بايعوا مسلماً اثنا عشر ألفاً . ونحن ، مع اعتبارنا إيّاه المصدر الأوثق لأخبار تلك الأيام ، نرتاب بصحّة هذا العديد . نظراً للكتلة السُكّانيّة التي كانت تعمر الكوفة يومذاك . خصوصاً بعد الخسائر البشريّة الهائلة التي تكبّدتها في صفين . ثم مَن الذي كان يُمسك القيود أثناء تلك الحالة الجماهيريّة الفالتة ، وبالنتيجة أتانا بذلك الرقم المُحدّد بالأُلوف ، الخالي من المئات والعشرات ؟ !

شأنها في كلّ ما كان من تاريخها معه . نقول ذلك مع اعترافنا بالعجز عن تقديم وقائع وشواهد صريحة مُحَدّدة على كلّ ما نقول . ذلك لأنّ من طبيعة إجراءاتٍ كهذه أنّها تجري في مستوى أدنى من ملاحظة المؤرخ .

ولكنّنا حينما نرى أنّ معاوية يولّي على المدينة بالتوالي اثنين ممّن حملوا لأهلها عداءً لدّا ، هما المغيرة بن شعبة ثم زياد بن أبيه بعد أن استلحقه بأبي سفيان ، وهي سياسةٌ مقصودةٌ ولا ريب ، ترمي إلى المَزيد من إحباط أهلها . ثم نرى المدينة ، ثانياً ، تعجز عن حماية سبعةٍ من أشرافها ، يُمثّلون ستةً من قبائلها الكبرى ، على رأسهم حجر بن عديّ الكندي ، فيسوقهم معاوية علناً إلى حيث سيُقتلون صَبْراً في الشام ، تحت شعار أنّ الصحابيّ عديّ قد "دعا إلى الحرب والفتنة ، وجمعَ إليه الجُموع يدعوهم إلى نكْث البيعة وخلْع أمير المؤمنين معاوية ، وكفرَ بالله عزّ وجلّ كَفْرةً صلعاء[1] ". ثم نرى المدينة ، ثالثاً ، وقد خلَتْ أو كادت من همْدان ، القبيلة التي ضربت المثَلَ الأوفى والأعلى والأقوى أمام الإمام علي (ع) ، وهي التي كانت من قبل الأكثر عديداً في الكوفة[2] . ـــ حينما نلاحظ كلَّ ذلك ، فإنّنا نكون على يقينٍ من أنّها خضعت لخطّة عقابٍ وإحباطٍ مُحكمَة ، تركتها عاجزةً خاضعةً ذليلةً . بحيث أنّ أهل الثّبات من أهلها، وعلى رأسهم طبعاً همْدان ، لم يبقَ لديهم خِيار إلا الخضوع لخطّة معاوية في تهجيرهم منها.

وقد قرأ الطبري كلَّ ذلك بحسّه التاريخي المُرهَف حيث قال:"إنّ أوّلَ ذُلٍّ دخل الكوفة موتُ الحسن بن علي، وقتل حجر بن عديّ، ودعوة زياد [3] ". ومن المعلوم

1 ـــ الطبري : 5 / 269 .

2 ـــ انظر على هجرة همدان من الكوفة إلى أنحاء الشام بعد صُلح سنة 51 هـ ، ودور معاوية فيها . ومن ثَمّ دور هجرتهم إليها ، غير المقصود طبعاً ، في نشْر الشيعة والتشيّع فيها ، ـــ انظر كتابنا : التأسيس لتاريخ الشيعة في لبنان وسورية ، ط. بيروت 1413هـ / 1992م / 72 وما بعدها .

3 ـــ الطبري : 5 / 279 . و دعوة زياد تعني استلحاقه بأبي سفيان . وبذلك كسب معاويةً إلى جانبه شخصيّةً قويّةً ، عارفةً بأسرار الكوفة وأهلها ، خصوصاً شيعتها منهم . الأمر الذي حمل تهديداً صريحاً لأهلها .

أنّ تلك كلّها من فِعال وتدبيرات معاوية .

ـــ الثالثة : ما من ريبٍ عندنا في أنّ معاوية قد عمل ، بموازاة ما بسطناه أعلاه من خطته ، على أن ينشرَ في الكوفة الفكرَ الذي سبق له أن عمل من قبلُ على نشره في أنحاء الشام . وهو هو ذلك الفكر الذي يمنح السُلطةَ الفعليّةَ شرعيّةً مُطلقة . وبالمُقابل يحظر ويُدين الخروج عليها مهما تكُن الأسباب .

هنا أيضاً تعوزُنا الشّواهدُ الصريحةُ على ما نقول ، للأسباب نفسها التي وقفنا عليها في الفقرة السابقة .

بيدَ أنّنا إذ نقرأ قولةَ قاتل القارئ بُرير :

فجرّدتُه في عُصبةٍ ليــس دينـهـم بديني وإنّي بابن حــربٍ لـقـانــعُ

وما تعنيه أنّه إنّما أقدم على قتله لأنّه بزعمه من غير دينه . الأمر الذي أوضحه

وفسّره بقوله :

فأبلِـغ عُبيـــدَ الله إمّـــا لقيتَــــه بأنـــّي مُطيـعٌ للخليفــة سـامــعُ[1]

ثم قولةَ الآخر ، مُسوغاً لنفسه رضّ جسد الحسين (ع) بحوافر فرسه :

نحن رضضنـا الظّهرَ بعد الصّدرِ بكلّ يعبـوبٍ شديد الأسْـرِ [2]

بما يُشبه تسويغَ سابقِه .

إلى جواب حامل رسالة ابن زياد إلى الحُرّ بقوله : " أطعتُ إمامي ، ووفيتُ ببيعتي " .

إذ نقِفُ على ذلك كلِّه ، فإنّ أوّل انطباعٍ يتركه فينا هو نكهتهُ الشاميّةً الحادّة ، البعيدة كلّ البُعد عن لغة ووُجدان الكوفةً ، نعني بالذات الفاصل العميق بين التديُّن بالسُلطة وللسُلطة ، وبين التديُّن لله تعالى ، ممّا برع معاوية بإشادةِ الأُنموذج الأوّل منه.

---

1 ــ الديوان / 2 .

2 ــ الديوان / 16 .

وقد قرأنا مثالاً صارخاً عليه قبل قليل في وصف خُروج حجر وأصحابه بأنّه " كَفْرةٌ صلعاء " ، وما يترتّب على هذا التصنيف من تسويغٍ للقتل ، وللتمثيل بالقتيل حتى إذ يكون في مقام ومنزلة الحسين (ع) . إلى نعتٍ يزيد بإمام ، وهو الذي لم يكُن سلوكه الفاسق خفيّاً في الكوفة وغيرها على أحد . ما هذا بلغة ووُجدان الكوفة كما عرفناها من قبل . بل هو من لغة وتدبير وعقل معاوية ، التـي نعرفهـا جيّداً . ونحن إذ نراها الآن وقد باتت على لسان أهل الكوفة ، فإنّنا نقطعُ بأنّ المدينة المَنكوبَة قد خضعت لعمليّة غسل دماغٍ عميقةٍ ، سلبتها ذاتيّتها وحضورَها التاريخيّيَن .

(4) وجها الكوفة

هكذا نصِلُ عن طريق تحليل وتركيب تلك النّصوص الشعريّة ، بالإضافة إلى
ما أخصبناها به من معلوماتٍ تاريخيّة ، خصوصاً الهجرة الكُبرى لهمْدان منها ، ــ نصِلُ إلى نتيجةٍ في الغاية من الأهميّة . هي أنّ الكوفة التي خرجت بالأُلوف لقتال الإمام الحسين (ع) في نِينَوى / كربلا هي ، في تركيبتِها العقليّة والوُجدانيّة والأخلاقيّة ، غير الكوفة التي ضحّت بفلذات أكبادها في سبيل الدفاع عن المشروع السياسي لأبيه الإمام علي (ع) ، قِبالَ النّاكثين والقاسطين والمارقين .

أمّا أُولئك الأفراد من أهلها ، الذين وقفوا مع الإمام حتى الشهادة في ساحة كربلا ، إمّا لأنّه " أتى به اللهُ لخير أمرٍ[1] " (الطرماح بن عديّ) ، أو لأنّ القائل " مؤمنٌ بالرّبّ[2] " (عبد الله بن نمير) ، أو لأنّه " أعلى حُجّةً وأظهر[3] " (حبيب بن مظاهر الأسدي) ، أو لأنّه مع " خير مَن حلّ بأرض الخيف[4] "(الحُـرّ بن يزيد الرياحي) ، أو
لأنّه " يذود عن بني الأحرار[5] " (عبد الله وعبد الرحمان الغفاريّان) . . . . الخ . ممّن

---

1 ــــ الديوان / 1 .
2 ـــ الديوان /3 .
3 ـــ الديوان / 4 .
4 ــــ الديوان / 6.
5 ـــ الديوان / 7 .

أثبتنا شعرهم الغنيّ بالمعاني أثناء القتال ، في الباب الأوّل من الفصل الأوّل ، ــ هؤلاء، على ما في دوافعهم النبيلة وحوافزهم الشخصيّة من اختلاف ، كما عبّروا عنها في شعرهم ، هم النُّخبة القليلة المَكثورة بمَن سواهم من أهل الكوفة المُستَلَبَة ، الذين كان لهم من الحَصانة والمَناعة والثبات وقوّة الأنفس ، ما منحهم أن يثبتوا في وجه الأعصار السياسيّ والنفسيّ الهائل ، الذي أثاره وأداره معاوية بدهاءٍ ما بعده دهاء ، وكان من نتائجه ما وصفناه من حالةٍ انقلابيّة ، نالت المدينة واستلبتها ذاتيّتها التي دخلت بها التاريخ من قبلُ من أوسع الأبواب . ولم تستعدها من بعدُ إلا بفضل دماء الشهداء ، الذين روّوا بدمائهم أرض كربلا .

(5) من ثمرات التحليل

من ثمرات هذا التحليل التركيبيّ المُعقّد ، أنّه يُبيّن لنا أنّ تلك الاستعادة لم تكُن كلّها على النحو الصحيح . بل كانت أشبه باستفاقة مَن عانى من صدمةٍ شديدة ، ما يزال يُعاني من آثارها .

نعني بذلك الجوَّ المُحبِط الذي أحاط بالنُّخبة الشيعيّة الكوفيّة القديمة ، ومنها مَن هم ممّن كانوا معدودين في كبار أصحاب أمير المؤمنين (ع) وخيارهم . وكانت دائماً تحثُّ الإمام الحسين (ع) ، بعد وفاة أخيه الإمام الحسن (ع) ، على إعلان الخُروج فيأمرها بالصبر والسّكون بانتظار الظّرف المُناسب ، أي بالتحديد بعد وفاة معاوية ، لِما هنالك من عهد وقّعه الإمام الحسن (ع) معه . ثـم مضت تُحرّر إليه الرسائل تلو الرسائل تدعوه للقدوم إلى الكوفة على أثر وفاة معاوية . ولكنّها انكفأت واختفت ما أن وصل مسلم بن عقيل إليها طليعةً للإمام الحسين (ع) . ثم لم نـرَ منها أحداً في مسلسل الأحداث العنيفة المُتوالية ، التي بدأت بشهادة مسلم ، وانتهت بفاجعة يوم كربلا . لتظهر بعد أن وقعت الواقعة ، باكيةً نادمةً مستغفرةً ممّا فرّطت في حقّ نفسها وفي حق إمامها الشهيد . وفي هذا السّياق من الألم والنّدم وتبكيت الضمير ، ارتكبت ما ارتكبت دون تبصُّر ممّا هو معروف .

إنّ من فوائد وثمرات ذلك التحليل التركيبي أنّه يجعلنا نفهم الجو الذي أحاط بتلك النُخبة . نفهمه فقط ، دون أن يعني بالضرورة أنّه يعذرها .

وها نحن قد ألمحنا إلى رأينا فيها وفي سلوكها بإيجاز أعلاه . وسنعود إليها وإليه ، إن شاء الله ، بما هو أوفى وأبين في المحلّ المُناسب القادم ، تحت عنوان (في شعر النّدم) .

الباب الثاني

في (أصداء يوم كربلا في المدينة كما نقرأه في الشعر)

(1) في الارتكاسات الأُولى

من الجدير بالذكر في مطلع هذا الباب ، أنّنا ، بعد السّبْر الذي نحسبه تامّاً لكلّ ما تذكره المصادر من أصداء يوم كربلا بين أهل المدينة في الشعر وفي غيره ، لم نسمع أدنى نأمةٍ أو أنّةٍ حزنٍ من أهلها الأُصلاء ، أعني بقايا الأنصار وأبنائهم ، ولا من الذين استقرّوا فيها من بقايا الصحابة ومن التابعين على كثرتهم . ومنهم مَن هم من ذوي العلم والمنزلة والسّابقة ، ممّن ستُطنبُ المصادر في ذكرهم وفي ذكر ما نزل بهم من صنوف الأهوال بعد قليل ، أي يومَ الحَرّة الرهيب بعد سنتين .

والحقيقةُ أنّنا بعد البحث والتأمُّل ، لم يبقَ في اليد تفسيراً ، وإنْ على نحو الاحتمال ، لذلك الصمت المُريب ، إلا أن تكون قد خفيت على الذين سجّلوا تلك الأصداء ، بسبب ضعف حضور أصحابها . وهم الذين لم يفوزوا باهتمام المؤرخين فيما بعد إلا بسبب ما نزل بهم بعد سنتين كما قُلنا .

ومع ذلك فإنّنا ما نشكُّ في أن المدينة ومعها مكة كانتا في أشدِّ حالاتِ الغضب ممّا جرى . الأمرُ الذي عمل عليه عبدُ الله بن الزبير ، وهو الطّامح المُزمن إلى سُدّة الخلافة ، فقام في أهل مكّة مُعظّماً لمقتل الحسين (ع) ، ولامَ أهلَ العراق ، على أنّهم دعوه لينصروه ، فلمّا قدم عليهم ثاروا عليه [1]. وكان من عواقب هذه الخطوة الذكيّة والانتهازيّة ، أنْ كاتَبَه أهلُ المدينة يدعونه إلى إظهار بيعته ، ممّا يمكن اعتباره بداية ثورتها الهائلة ، التي انتهت إلى يوم الحَرّة الرهيب . كما ثار باليمامة نَجْدة بن عامر الحنفي[2] ، ثورةً يبدو أنّها كانت قصيرة النّفَس ، لأنّنا لا نجِدُ لها ذكراً إلا خبراً قصيراً عابراً .

---

1 ــ الطبري : 5 / 474 .

2 ــ نفسه / 479 .

فهذه ثلاث ثوراتٍ تتابعت في الحجاز وما والاه ، على قاعدة الغضب لِما ارتُكب يوم كربلا ، على ما بينها من اختلافٍ في الخلفيّات والحوافز الخفيّة . ولكنّها جميعها ، بما لها من فعلٍ عملانيّ ونفسانيّ ، ساهمت بالتعجيل بإسقاط الحكم الأموي ، تحت وطأة ما ارتكبته ، كما سنبيّن في الآتي إن شاء الله .

(2) سياسة الدولة في الحجاز بعد كربلا

وفي المُقابل شرعت الدولة في تدبيراتٍ أمنيّةٍ وسياسيّة عنوانها التخبُّط ، الذي إن دلّ على شئ ، فعلى أنّها كانت من قصر النّظر ، بحيث أنّها لم تتوقّع أن تكون لجريمتها تلك الأبعاد ، بحيث أودت إلى أوّل ثورتيَن على الحكم الأموي ، هما ثورة المدينة يوم الحرّة ، وثورة ابن الزُّبير ، اللتين ستشغلان الدولة طيلة السنتين التاليتيَن . نذكر من تلك التدبيرات بإيجاز ، أنّها جعلت على مكة وطُرُقها وشعابها رجالاً ، يكتبون أسماء مَن يدخلونها ، والبلدان التي أتوا منها ، وما جاء بهم وماذا يُريدون . فإن كان ممّن يرتابون به ردّوه ، وإنْ كان ممّن يطمئنون إليه تركوه يُتابع طريقه إليها [1]. كما أنّها عزلت واليها الدّاهية عمرو بن سعيد الأشدق ، وولّت عليها الوليد بن عتبة ، ثم عزلت هذا بالفتى الغرّ الحَدَث عثمان بن محمد بن أبي سفيان .

(3) أصداء كربلا في الحجازكما نقرأُها في الشعر

مهما يكُن ، فإنّ ما استوعيناه في الباب الثاني من الديوان من شعر، ينطوي على دلالاتٍ ومغازي جمّة . نقرأُ فيها بدايات تفاعُل الحدَث الكربلائي . وانطلاقاً منها سيتوالى ، بمختلف تجلّياته وأشكاله وفصوله . وكلُّ ذلك سيكون موضع عنايتنا في كلّ ما بقي من الكتاب إن شاء الله .

من المؤكّد أنّ المدينة ، يوم دخلها الإمام زين العابدين (ع) عائداً من دمشق ، ومعه مَن بقي على قيد الحياة من النساء والأطفال ، كانت تعرف ، إجمالاً على الأقلّ ،

---

1 ـــ أيضاً .

ماجرى في ساحة كربلا وما تتابع من بعدها . كانت تعرفُ أنّ الحسين (ع) ومَن كـان
معه من أهل بيته وأصحابه قد قُتلوا . وكانت تعرفُ أنّ رؤوس الشهداء ، بما فيها رأس سيّدهم ، قد طيف بها في البلدان والأقطار على رؤوس الرّماح من الكوفة إلى دمشق . وكانت تعرفُ أنّ النساء والأطفال قد عوملوا ، طوال الطريق الطويل ما بينهما ، معاملة السّبايا .

(4) دخول الإمام زين العابدين (ع) المدينة

ومع ذلك فإنّه (أعني الإمام زين العابدين (ع) عمل على أن يكون دخوله مدينة جدّه دخولاً تحريضيّاً عريضاً ، يُحيي ذكرَ الفاجعة بعد مرور شهرين ونيّفٍ على
حصولِها . وإن نكُن على يقينٍ من أنّها كانت ما تزال في أعلى درجات الحياة ، بفضل الذين واللواتي دأبوا على إحيائها بكلّ وسيلة ، ممّا سنقِفُ عليه بعد قليل . ولكنّ دخول النّاجي الوحيد من المذبحة من أبناء سيّد الشهداء له معنىً مختلف . خصوصاً حيث يأتي مُرتفقاً بتحريك المُخيّلة بالشعر خصوصاً . فكأنّ السّامعين يشهدون الواقعة مُتجدّدةً رأيَ العين . فضرب خيمته خارج المدينة ، ودعا مَن اسمه بشير بن حذلم إلى أن يدخلها وينعى الحسين (ع) بشعره .

والحقيقةُ أنّ بشيراً برع فيما ندبه إليه الإمام كلَّ البراعة . فرأيناه في الباب الثاني من الديوان وهو يُركِضُ فرسه ركضاً ، وبذلك يبدأ في إلفات نظر الناس ، ثم يقِفُ على باب مسجد رسول الله (ص) ، حيث مجمع الناس وأكثرهم استعداداً للتأثّر بالنّداء الباكي ، فيصرخ باكياً :

ياأهل يثرب لا مُقام لكم بها [1]

فكأنّه بهذا المَطلع المُهيّج للنفوس يستعيد لحظةً عصيبةً ممّا مرّت به الدعوة في المدينة ، حيث كان المُنافقون والذين في قلوبهم مرضٌ يُرجفون بالمؤمنين بمـا يدعوهم

---

1 ـــ الديوان / 23 .

.

إلى اليأس قائلين : " يا أهل يثرب لا مُقام لكم [1] " يعني في المدينة . ليُلقيها بكامل ثقلها
على لحظة كربلا ، مُحمّلاً أياها دعوةً مُماثلة ، بعد قتل الإمام والدّوران برأسه الشريف في البلدان على القناة .

ولسنا ندري هل أنّ هذه الأُطروحة المُعقّدة كانت ممّا أوحى به الإمام زين العابدين (ع) للشاعر ، أم أنّها من بنات أفكاره هو . على أنّني أظنُّ ، بما يُشبه القطْع ، أنّها من وحي الإمام إليه . ذلك لأنّ من الصعوبة بمكان أن نتصوّر أن ابن حَذلم ، مهما يكُن سريع البديهة ، قد نظَم في ذهنه ذلك السيناريو البارع في لحظاتٍ معدودات ، هي ما بين تكليف الإمام له بأن يدخل المدينة وينعى الحسين (ع) ، وبين وُصوله بفرسه الرّاكض إلى المسجد ، بما في ذلك نظْم البيتيَن الجميليَن . بل الأرجح أنّ تلك خطّةٌ نظمها صاحبُها بكامل التُّؤدة والأناة .

فهذا من أبرز أصداء يوم كربلا في المدينة . كان له من الأثر ما كان ، ممّا سكت
عنه راوي الخبر .

(5) ارتكاس السُلطة المحليّة

ثاني الأصداء نقرأه في ارتكاس صنائع الأُمويين ، مَن هم منهم نسباً ، على وصول الخبر إلى المدينة . نخصُّ عمراً بن سعيد بن العاص الأشدق ، أمير المدينة يومذاك ، الذي ما أن أخطره عبيد الله بن زياد بقتل الحسين (ع) وخبرأهل بيته ، حتى أمر بأن يُنادى بالخبر . ثم أنّه عندما سمع صراخ نساء بني هاشم في دُورهنّ ضحك وتمثّل بقولة شاعر :

عجّـت نسـاءُ بني زيـادٍ عجّةً كعجيج نسـوتنـا غـداة الأرنب[2]

ثم قال : " يومٌ بيوم عثمان " .

---

1 ـــ سورة الأحزاب / 13.
2 ـــ الديوان / 18 .

هذا كلامٌ لا ينضح بغير التّشفّي وبروح ثأرٍ موهوم . وصدوره في تلك اللحظة من امرئٍ يعرف ما للحسين (ع) من مكانةٍ عاليةٍ بين أهل الحجاز إجمالاً ، وما
سيتركه كلامه لدى الناس ممّا هو في غير صالحه ، إنْ دلّ على شئ فعلى غباءٍ سياسيّ مُطلَق . ولو انّه كان على شئٍ من الحكمة وبُعد النظر لسكت على الأقلّ ، أو لخاطب أُولئك المُلتاعين بكلماتٍ مجّانيّة ، قد يقولها المرء لأعدى أعدائه ، مادام ليس شريكاً علنيّاً في سبب حزنهم .

أمّا مروان بن الحكم ، فإنّ كلامه في المناسبة نفسها يدلُّ على رؤيةٍ سياسيّةٍ لا تخلو من ذكاء ، وإنْ تبيّن من بعد أنّها بعيدةٌ كلّ البُعد عن الحقيقة والصواب . ذلك حيث تمثّل هو أيضاً بقول الشاعر :

ضـربـت دوسَـرُ فيهم ضـربـةً أثبـتت أوتـادَ مُلكٍ فاسـتقـرّ[1]

يعني أنّ قتل الإمام الحسين (ع) ، بوصفه العدوّ الأوّل والأشدّ خطراً على السُلطة ، قد ثبّت أوتاد ملكها ، بحيث أنّها بقتله لم يعُد أمامها مَن تخشى خطره عليها . وهو معنى يتردّدُ في الشعر الحسيني ، كما سنرى في الآتي إن

شاء الله . لكنّ مجاري الأحداث أثبتت أن هـذا التحليل هو تماماً بعكس الحقيقة ، كما سنرى أيضاً . بل لعلّ ابن الحكم نفسه هو من أوائل مَن أدركوا هذه الحقيقة ، ورأوا الأبعاد المُستقبلة لتداعيات الجريمة . فحاول أن يحمي نفسه من مؤثّراتها. وذلك بأن ينضمّ إلى جوقة النّادبين مع الأُم المُلتاعَة على أبنائها الأربعة ، أُمُّ البنين زوجة الإمام أمير المؤمنين (ع)، " فيجتمع أهلُ المدينة لسماعها ، وفيهم مروان بن الحكم[2] " . ونحن الذين سنعرف انشطار البيت الأُموي بين سفيانيين ومروانيين على قاعدة اللّوم على ارتكاب الجريمة بذلك النحو، بعد أن بدأت تظهر إماراتُ انقلابها على مُرتكبيها، ـ نرى في فعل مروان

---

1 ـــ الديوان / 19 .
2 ـــ الديوان / 45 .

بداية الصّراع العنيف المَكتوم الذي نشب بين شطري البيت ، ممّا سنفرغ له في الآتي .

وهذا ثاني أصداء المدينة على يوم كربلا مقروءةً في الشعر .

(6) شعر النّواح ودوره التحريضي

ثالثُها نقرأه في شعر النّواح الدّائر بين أهلها . ما كان منه من نواح المُصابين مُباشرةً من أصحاب الدّم ، وما كان منه من غيرهم . وهو بمجموعه يدلُّ على أنّه (النّواح) كان الشّغل الشّاغل لأهل المدينة مدّةً غير قصيرة . وانشغال مدينةٍ بأكملِها بالتعبير المُستديم عن الحزن على واقعةٍ بعينها ، ظاهرةٌ غير مألوفة ، نراها في عُمق التأسيس لشعيرة المجالس الحسينيّة ، كما لا تزال دائرةً موسميّاً وسنويّاً دون انقطاعٍ حتى اليوم .

على أنّه ينبغي علينا أيضاً أن نلحظَ الفوارق في تناوُل الواقعة . فنُواح أسماء بنت عقيل وأُختها زينب يستحضر شخصَ النبي (ص) ، باعتباره المُطالِب بالجواب عن سؤالٍ " ماذا فعلتم بأهلي وبعترتي[1] ؟ " وأنّ ما فعلوه ليس الجزاء المُناسب لنُصحه لهم . بينما يستحضر مولىً مجهولٍ الأنبياءَ السابقين ، وهم يُنذرون القتَلة "بالعذاب والتّنكيل[2]" . في حين أنّ نائحةً مُحترفة اسمها (ذرة) تستحضر الزهراء (ع) ، آمرةً إياها في المنام بأن تنوح على ابنها بأبياتٍ [3]. وفي هذا خصوصاً دليلٌ على أنّ النّائحات في المدينة ، أو بعضهنّ على الأقلّ ، قد تخلّين عن النّواح بوصفه عملاً مأجوراً لهنّ ، لحساب حافزٍ ذاتيّ لديهنّ الآن ، وإنْ أتى مُغلّفاً بتكليفٍ مباشرٍ لهنّ في المنام من السيّدة الزهراء (ع) .

---

1 ــ الديوان / 21 .
2 ــ الديوان / 22 .
3 ــ الديوان / 25 .

الباب الثالث

في (شـعر النّـدم)

و " النّدم " هو شعور صاحبه بالأسف بعد فوات الأوان ، لأنّه لم يعمل بما يقتضي ويجب في الوقت المُناسب للعمل . مع الاعتقاد الجازم بأنّه لو كان قد عمل بما يناسب المُقتضي والواجب في أوانه ، لربما ساهم مُساهمةً ما في منْع حصول ما أوجب الأسف . أو على الأقلّ ، مهما يكُن المَآل الفعليّ لِما وقع بالفعل ، لكان قد عمل ما عليه بما يستطيع وبما هو من وُسعه ، ولتجنّب تبكيتَ الضمير لأنّه قعد حيث كان يجب عليه القيام .

لكنّ الحقيقة أن " النّدم " فيما يخصُّ المقام اتخذ معاني مُتعدّدةً . تبعاً لموقع صاحبه ورؤيته لموضوعه ، وما تُمليه عليه عقيدتُه أو مصلحتُه . ومن هنا نراه قد اتخذ معاني وسلوكيّاتٍ ثلاثة :

(1) التوّابون

فمنهم ، وهم أعرف المثالات على النّادمين لأنهم قد حجبوا نصرهم عن الإمام ، أُولئك الذين دخلوا التاريخ تحت اسم (التّوّابين) . ذلك لأنّهم قد جعلوا من ندمهم الشديد فعل توبة كما فهموها وكما عملوا بها . أُولئك الذين عرفنا نواتَهم الفاعلة من قبل ، وأنّهم كانوا من كبار أصحاب أمير المؤمنين (ع) في الكوفة . على رأسهم الصحابيّ سليمان بن صُرّد الخزاعي . وكان أبرز قادتهم في بداية الحِراك المُسيّب بن نَجَبَة الفزاري ، وعبد الله بن سعد بن نفيل الأزدي ، وعبد الله بن وال التّيمي ، ورِفاعة بن شدّاد البجلي .

أمضى الزعماء الخمسة ثلاث سنواتٍ وبضع أشهرٍ يُحرّضون ويستعدّون ويُعدّون . والجدير بالذكر أنّهم أظهروا منذ البدايات الأُولى لحراكهم أنّ الحافز الجامع بينهم هو النّدم وطلب رضى الله تعالى والنّجاة من سخطِه ، ولكنّهم كانوا مختلفين في الوسيلة . فسليمان ظلّ يُعلن منذ الخطاب الأوّل بعد تأميره عليهم أنّ بغيته هو الصّبرُ

على القتل المُحقّق . مُتّخذا من توبة بني إسرائيل ، بعد أن اتّخذوا العجل ، بقتل أنفسهم
سابقةً وقُدوةً [1] .

لكنّ خالداً بن سعيد بن نُفيل خالفه بأن قال : " والله لو علمتُ أنّ قتل نفسي يُخرجني من ذنبي ويُرضي عنّي ربّي لقتلتُها. ولكنّ هذا أُمِرَ به قومٌ غيرُنا كانوا من قبلِنا ، وقد نُهينا عنه " . وأيّده في مقولته حَنَش بن ربيعة الكِناني [2] . وكلاهما لم يكُن مُمثّلاً في أصحاب البادرة الأُوَل الخمسة . ومع ذلك فإنّهما كلاهما أيضاً ، بعد أن خرجا من مالِهما لمصلحة الإعداد للقتال ، خضعا للاتجاه الغالب ، على الرغم من وجاهة موقفهما وحُجّتهما ، وما فيه من كياسةٍ وفقهٍ وتقوى . فقاتل حنش مع التوّابين في عين الوردة [3] . وكذلك خالد الذي استشهد في الوقعة [4] ، وقد ذكره أعشى همْدان باسمه في مرثيته المُطوّلة لشهدائها [5] .

المُهمّ أن زعماء الحركة انتظروا حتى رأوا وضع الدولة يختلّ ، تحت وطأة الصراع المكتوم بين فرعيها السّفياني والمرواني ، بسبب تداعيات جريمة يوم كربلا البالغة السّوء عليهم ، وكان أوّل مظاهر الخلل العلنيّة اغتيال يزيد كما سنعرف في خاتمة هذا الفصل ، ــ فجمعوا جموعهم واتجهوا إلى النُّخيلة ، المُعسكرالتقليدي للكوفة ، ومنها إلى قبر الحسين (ع) ، حيث أمضوا ليلةً في البكاء والنّحيب وإنشاد الشعر . وفي هذا الجوّ العابق بالحزن والنّدم والتّبكيت ، اتخذوا قرار السّير إلى دمشق للانتقام ممّن

---

1 ــ الطبري : 5 / 554 . وكلامه مُستندٌ إلى ما قاله موسى لقومه [إنّكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتُوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسَكم] (البقرة / 54) .

2 ــ نفسه / 555 .

3ــ أيضاً / 597 .

4 ــ أيضاً / 601 .

5 ــ الديوان / 58 .

كانوا وراء القرار السّياسي بما كان سبب حزنهم . ولإنزال العقاب بأنفسهم على ما فرّطوا في حقّ إمامهم . وفي الوقت نفسه كانت الدولة ، على الرغم من اختلال أمرها ، تُراقب حِراكهم ، فوجّهت جيشاً لجِباً ليحول دون وُصولهم إلى العاصمة . وفي عين الوردة ، إلى الشمال الغربي من صفّين ، التقوا بالقوّة الأموية بقيادة غريمهم عُبيد الله بن زياد ، بأمرٍ من الخليفة الجديد مروان بن الحكم ، التي تفوق عسكرهم بأضعاف ، حيث خاضوا معركةً استشهاديّة يائسة ، أسفرت عن مقتل أكثرهم ، ومنهم زعماؤهم باستثناء رفاعة بن شدّاد ، الذي انسحب بمَن بقي منهم إلى الكوفة .

(2) تقييمنا لحركة التّوّابين

يستمدُّ التّوّابون حوافزَهم ، كما بات معلوماً للقارئ ، من النّدم ومن البحث عن وسيلةٍ للحصول على المغفرة . وذلك بالانتقام انتقاماً مُزدوجاً . الانتقام من المسؤولين عن القرار بقتل الحسين (ع) ، بشنّ الحرب عليهم . والانتقام من الذّات بتوطين أنفسهم على الحرب ، مع علمهم المُسبَق بمآلِها وبمآلهم ، بالنّظر للتفاوت الكبير في ميزان القُوى لمصلحة السُلطة ، واستحالة النّصر فيها .

أمّا مادّتُها من الناس ، فهي من المُخضرمين المُعمّرين ، الذين بذلوا زهرة عمرهم في الدفاع عن المشروع السياسي للإمام أمير المؤمنين (ع) . ولكنّهم تقدّموا نحو ختام أعمارهم بهفوةٍ فظيعة ، حيث قُتل إمامُهم بينهم دون أن يُدافعوا عنه بفعلٍ أو قول . وبذلك بدا لهم أنّهم قد خسروا ماجنوه طيلة أعمارهم .

ذلك الحافز على قوّته هو في النهاية شخصيّ ، محصورٌ في موضوعه من الناس ، وفي خبرتهم وتجربتهم . أي أنّه ، بما له من مُواصفات ، ليس له من القوّة ما يجعلُ منه حافزاً ومُحرّكاً جَمْعيّاً . خصوصاً في ظل أُطروحة (التوبة بقتْل النفس) ، بوصفها على حدّ البدعة الحرام . وخصوصاً أيضاً ، وربما أكثر ، أن جيل الرجال الذين بسنّ العمل بالكوفة في ذلك الأوان ، لم يمرّ بتجربةٍ مُماثلة . بل ويمكن القول أنّه قد مرّ بتجربةٍ مُعاكسة، إنْ نحن أخذنا بالاعتبار ما تعرّضت له المدينة من عوامل الإحباط والتلاعب

بالعقول ، بتخطيطٍ وتدبيرٍ من معاوية ، ممّا بسطنا الكلام عليه في الباب الأوّل من هذا الفصل .

وجه الغرابة في حركة التّوّابين ، أنّها ثورةٌ خاليةٌ من أي مضمون . ليست تملك
أُطروحةً سياسيّة أو اجتماعيّة. وأنّ برنامج الضّالعين فيها محصورٌ عملانيّاً في الانتقام من ذاتهم ، وعن هذا الطريق الحصول على المغفرة . وعليهم لكي ينتقموا من أنفسهم أن يُقاتلوا ليُقتَلوا . كلامٌ كهذا لا يعني شيئاً لمَن لا يُعاني من الحسْرة مثلَ ما يُعانون . وطبعاً بالإضافة إلى الثأر من السُلطة التي اتخذت القرار بقتله . وهو مطلبٌ خيالي بالنّظر للتفاوت الكبير في ميزان القُوى لمصلحة السّلطة ، كم قلنا قبل قليل .

لذلك فإنّ حركة التّوّابين ، بعد ثلاث سنوات ونيّف من التحريض والإعداد والاستعراضات العسكريّة العلنيّة الحماسيّة في الكوفة ، لم تنجح في جذْب إلا ما دون الأربعة آلاف مُقاتل[1] ، هو العديد الذي اجتمع في النُخيلة ، ومنها اتجه إلى كربلا ، ثم منها انطلق في رحلةٍ طويلةٍ شاقّةٍ إلى دمشق .

هو ذا تحليلنا لحركة التّوّابين من منظورٍ تاريخانيّ .

أمّا من منظورٍ شرعيّ فالأمر أسوأ .

ذلك أنّ قرار شنّ حربٍ من أيّ حجم ، مهما تكن أسبابُها الشّخصيّة قويّةً عند صاحب أو أصحاب القرار ، ليس قراراً استنسابيّاً ينظرُ إلى علاج أزمتهم . بل لا بُدّ أن يصدرَ ممّن له الأمر . أي ، بالنّظر لعقيدتهم أنفسهم ، الإمام زين العابدين (ع) . وأنْ يكون لهدفٍ سياسيّ ، مَبنيٍّ على قراءةٍ سياسيّةٍ لِما هو قائم وضرورة تجاوزِه . مع أملٍ معقولٍ بتحقيقه . وتلك شروطٌ ثلاثةٌ افتقرت إليها الحركة .

السؤال الكبير هنا :

كيف يجوز لجماعةٍ ، مهما تكن دوافعُها قويّة ، أن تتجاوز إمامَ عصرِها ، فتنفرد

---

1 ــ الطبري : 5 / 76 .

دونه بقرارٍ كبيرٍ بحجم شنّ حرب ، تُزهَقُ فيها الأنفس ؟

ما يزيد هذا السؤال خُطورةً ، أنّ هذه الجماعة نفسها قد تنكّرت من قبلُ لأمر الإمام السابق بالقتال ، مع تصريحهم مراراً وتكراراً باقتناعهم التّامّ بضرورتِها . فكأنّها في الحاليَن تتصرّف وِفقَ مزاجِها وحساباتِها هي ، دونما أدنى اكتراث بالقواعد الشّرعيّة
وبالتكليف الشّرعيّ وبمُقتضيات الحال وبالتزاماتها المُسبَقَة .

ثم :

هل أنّ من شرط التوبة ، مهما يكُن الذنب فادحاً عظيماً ، أن لا تتمّ وتُقبل إلا بأن يأتي المُذنب التّائب بما يودي به إلى القتل المُحقّق ؟

هل من سابقةٍ في الإسلام من شأنها أنّها تصلح أن تكون موضعاً للاقتداء في هذا ، بل هل ثمّةَ من فكرةٍ أو إشارةٍ لذلك فيما شرعه الإسلام ونطق به كتابُه ؟

لقد رأينا فيما سبق ، أنّ اثنين على الأقلّ من الذين اشتركوا في المُداولات الأُولى للتّوّابين قد اعترضا على إسقاط أمر النبي موسى (ع) لبني إسرائيل على أزمتهم بأن يقتلوا أنفسهم ، بالقول إنّ هذا ممّا أُمِرَ به غيرُنا وقد نُهينا عنه . ممّا يدلُّ على أنّ مراجعتنا الآن لم تكُن خفيّةً على بعض أهل الكوفة على الأقلّ ، بل كانت موضعَ فهمٍ وتفهُّمٍ تامّيَن منهم .

في هاتين الملاحظتيَن يكمن الفارق الكبير بين شعار التّوّابين المُستحيل وحوافزهم الشّخصيّة المحصورة بهم ، وبين شعار الاقتصاص ممّن باشروا بأيديهم أو بأمرهم قتل الحسين (ع) ومَن معه ، الذي سيطرحه المُختار من بعدهم في الوسط الكوفي المأزوم . ليلقى قبولاً وحماسةً شبه عامّيَن ، بحيث التفّتْ المدينة من حوله ، بأن أعلنت العصيان المَدَنيّ ، وشكّلتْ حكومةً محلّيّةً ، ثم مضت تُطارد القتلَة وتقتلهم واحداً واحداً ، وُصولاً إلى كبيرهم عُبيد الله بن زياد . مُقابل الموقف البارد ، إلى حدّ عدم الاكتراث تقريباً ، من أُطروحة التّوّابين .

ذلك أنّ أُطروحة المختار هي ، أوّلاً ، مُتحرّرة من عقدة الذّنب المحصورة

بمَن عصوا ماهو بمعنى الأمر من الإمام ، ثم تركوه لمصيره ، وليست تعني الكثير بالنسبة لغيرهم . ثم أنّها لم تتورّط في إعلان الحرب والتّجييش لها ، وما يترتّب عليه من إشكالاتٍ صعبةٍ حدّيّةٍ ، كُنّا قد وقفنا عليها قبل قليل . وهو أمرٌ مختلفٌ عن الاقتصاص ممّن باشر قتل الإمام أو أحد أصحابه . لأنّ هذا ليس مشروطاً بالأمر ممّن هو له ، بل يمكن ، وربما يجب ، على كلّ مُستطيع مع الأمن من العقاب . وذلك ، علـى
كل حال ، مَشروطٌ بغياب سُلطةٍ شرعيّة ، تلي بنفسها وبالأجهزة التابعة لها إيقاع العقاب المُناسب بالقاتل ، بما لهـا من سُـلطةٍ قضائيّـةٍ وجزائيّةٍ .

(3) أُنموذج حركة التّوّابين في شعر النّدم

حين نقرأ ما وصلنا من شعر التّوّابين من جُملة شعر النّدم ، وهو خمسة نصوصٍ فقط ، فإنّ أوّل ما نُلاحظه أنّها قد قيلت في جوّ المعركة ، باستثناء الأبيات التي أجاب بها المُثنّى بن مخرّبة العبدي على رسالة سليمان بن صُرّد ، التي أخطره فيها ببدء نهوضهم ، ويدعوه إلى النُّصرة [1] . أي أنّ ما جرى في كربلا لم يُحرّك شاعريّتهم كما عمل بغيرهم . ولعلّ السبب في ذلك ، أنّ ذكر الواقعة وما تمخّضت عنه ، كان مُذكّراً لهم بعارهم المُقيم ، إذ خذلوا إمامهم بعد أن دعوه ومنّوه . فسكتوا سكوتَ من يتناسى أو يريد أن ينسى . يؤيّد ذلك قصيدة عبد الله بن عوف بن الأحمر الأزدي ، الذي يبدو أنّه التحق فيما بعد بالتّوّابين . وفيها يلوم الذين دعوا الحسين (ع) ثم أسلموه [2]. ممّا يفهم منه أنّه لم يكُن في الكوفة يوم كربلا [3]، ولم يكُن بالتالي يُعاني ممّا عانوه [3].

---

1 ـــ الديوان / 29 . والمُثنّى من سادة بني عبد القيس في البصرة ، استجاب لدعوة سليمان ، وأنجدالتّوّابين بثلاثمائة مُقاتل ، شارك بنفسه وبهم بالقتال في عين الوردة . ثم نصر المُختار من بعدُ إلى آخر لحظة . وكان بمثابة خليفته في البصرة . أخباره مبسوطةٌ في : الطبري : 5 / 590 و 600 و 605 و6 / 8 و 66 ـــ 68 .

2 ـــ الديوان / 45 . حيث قال : لحا الله قوماً أشخصوهم وغرّروا فلم يُرَ يوم البأس منهم مُحاميا .

3 ـــ قال من قصيدته نفسها :

فياليتني إذ ذاك كنـتُ شهدتُـه فضاربتُ عنه الشّانئين الأعاديـا

ولعلّ من آثار هذا المَحْل بالشعر الحسيني بينهم ، أن الآلاف الأربعة تقريباً منهم ، الذين التقوا في كربلا حول قبر الإمام الحسين (ع) ، قبل أن ينطلقوا باتجاه دمشق ، لم يجدوا لأحدهم من قصيدةٍ يُنشدها بالمناسبة ، كما جرت العادة في هذا الموقف ومثلِه ، ابتغاء شحن نفوس المُقاتلين ، ورفع درجة حماستهم . لكنّ أحدهم ،
واسمه وهب بن زمعة الجُعفي ، أنقذ الموقف بأن أنشد قصيدةً لابن قبيلته عُبيد الله بن
الحرّ الجُعفي ، الذي سنقِفُ عنده بعد قليل . وهي هائيّة ومن عيون الشعر [1]، شأنَ كل شعر صاحبها . تقبّلها الجمْع الحزين بالبكاء والنحيب . وربما كان من قوّة فعلها بهم ، أنّهم اتخذوا على الأثر قرار الاتجاه فوراً إلى دمشق .

القصائد الأربع الباقيات هي من شعر الحماسَة الوظيفي . أوّلُها وأجملُها أبياتٌ لعبد الله بن عوف بن الأحمر الأزدي[2]، أنشدها وهو على فرسه يبختر في مقدّمة الرّكب المُتجه إلى دمشق ، ابتغاء شحن المُقاتلين ورفْع روحهم المعنويّة . يصِفُ في مطلعها خروجَهم "أرسالاً عوابساً يحملننا أبطالا". ويُنوّه بسبب خروجهم وأنّه طلباً لرضى المُهيمن المفضال . ثم اثنتان ، إحداهما لسليمان بن صُرّد [3] ، والثانية لعبد الله بن نفيل[4]، وهما ممّن عرفناهما من قادة التّوّابين . وكلتاهما ناطقةٌ بهاجس التّوّابين في التوبة وطلب المغفرة . وحده المُسيّب بن نجَبَة الفزاري يستحضر بشعره حبيبةً مُفتَرَضةً " ميّالة الذّوائب واضحة الخدّيَن والتّرائب ". ويستشهدها على أنّه "أشجع من ذي لُبدةٍ مُواثِب[5]"دون أن يأتي على ذكر الهاجس المعلوم لأقرانه. ولاتفسير عندنا لهذه المُفارَقَة .

فهذا أوّل وأعرف ما وصلنا من نماذج شعر النّدم .

---

1 ــ الديوان / 30 .
2 ــ الديوان / 31 .
3 ــ الديوان / 32 . ومطلعها : إليك ربّي تبتُ من ذنوبي .
4 ــ الديوان / 33 .
5ــ الديوان / 34 . ومنها : إرحم إلهي عبدك التّوّابا .

(4) أُنموذجٌ فريدٌ في شعر النّدم

مُمثّله الوحيد عُبيد الله بن الحرّ الجُعفي .

وعُبيد الله شخصيّةٌ مُلتبسةٌ بأوصافها ، وبوضوحها وصراحتها ، وبنزقِها
وطيشِها ، ولكن أيضاً بقلقِها تارةً وثباتِها أُخرى . وعلى كلّ حال ، فصاحبُها لم يختبئ
يوماً وراء إصبعِه . فضلاً عمّا أصاب بعض سيرته من تشويه لدى مؤرخين [1] .

التقى بالإمام الحسين (ع) في قريةٍ بجنب الكوفة اسمها (قصر مُقاتل) ، فقصده طلباً لنُصرته . ممّا يدلّ على أنّ الإمام كان يعرفه ، أو يعرف عنه ما يكفي ، ويُعلّق أهميّةً على موقفه منه . فأجابه هذا دون مُواربة ، أنّه لم يخرج من الكوفة إلا كراهةَ أن يدخلها الإمامُ وهو فيها. بل وأنّه لا يُحبُّ أن يراه أو أنْ يرى الإمام . ومع ذلك فإنّه جزم بأنّه لن يكون في مَن يُقاتله [2]. وقد وفى له بعهده .

لكنّه ما أن وقعت واقعةُ كربلا ، حتى انتفض عن إنسان آخَر ، تأكله الحسرة والنّدامة على أنّه حجب النُصرة عن الإمام يوم حقّتْ . وفي هذا السبيل نظم أروع القصائد المُطوّلَة ، عبّر فيها عن حسرته ما دام حيّاً ، منها قصيدته التي عبّر فيها ندمه المُقيم على أنّه حجب نصره عن الإمام :

فيالكِ حســـرةً ما دمتُ حيـاً ... تـــردّدُ بين حلقـي والتّراقـي
حسينٌ حين يطلبُ بَذْلَ نصرٍ ... على أهــل الضلالـة والنفاق [3]

وثانية نظمها بعد أن قصد كربلا ، فنظر إلى مصارع الحسين ومَن قُتل معه [4].

---

1 ـــ انظر كتابنا : موكب الشهادة ،ط. بيروت 2013 / 106 ـــ 107 .

2 ـــ الطبري : 5 / 407وابن أعثم الكوفي : الفُتوح ، ط. حيدر آباد ، لات : 5 / 130 ـــ 33 . وبقية أخباره ومغامراته المُذهلة مع المختار ومصعب بن الزبير ، ونهايتها بقتله سنة 68 هـ في الطبري : 469/5 و 527 و 105/6و 106 و 116 و 27 ـــ 35 و 137 .

3ـــ الديوان / 28 .

4 ـــ الديوان / 29 .

وثالثة يُشيد فيها بالمُختار مطلعُها :

ولمّا دعا المختارُ للثّار أقبلت كتائبُ من أشياع آل محمد [1]

ورابعة هي التي أشرنا إليها من قبل ، حيث وقفنا على تحلّق التّوّابين حول قبر الإمام ، قبل انطلاقهم إلى دمشق .

وممّا يدلُّ على بُعد نظر عُبيد الله واستقلاله بالرأي والموقف أنّه ، على كثرة مانظم من شعر ، يدورُ على ما اضطرب هو فيه ، أو ما اضطرب فيه الناسُ من حوله ، فإنّنا لم نرَه يوماً يأتي على ذكر التّوّابين لا بخيرٍ ولا بشرّ . فكأنّهم بالنسبة إليه لم يكونوا في الكوفة أثناء السنوات الثلاث من التحريض والإعداد العلني . ثم كأنّهم لم يسّاقطوا

بالآلاف في عين الوردة بسيف عُبيد الله بن زياد ، ومنهم ولا ريب الكثيرون ممّن عرفهم وعرفوه حقّ المعرفة . فسكوته عن ذكرهم موقف ، نراه يحمل معنى أنّ خيرَهم ليس خيراً كلّه ، وأنّ شرّهم ليس شرّاً كلّه . فالسكوت عنهم خير .

(5) أُنموذجٌ خفيٌّ من شعر النّدم

ثمّة أُنموذجٌ ثالثٌ من شعر النّدم غير صريح . أربابُه ممّن ضلعوا في الجريمة بنحوٍ أو بغيره . ولكنّ استكبارهم حال بينهم وبين الاعترافِ صراحةً بما ارتكبوه . لذلك فإنّ ندمهم يأتينا مُغلّفاً بغلافٍ لا يبدو من ورائه إلا ما قد يندُّ عنهم ، وكأنّما عفو الخاطر ، شيءٌ ممّا تُكنّه نفوسُهم من منزلةٍ عاليةٍ لمَن ضلعوا بقتله . لذلك فإنّ خفيَّ كلامهم لايبوح بخبيئه إلا لمَن عرفهم وعرف مُضطرَبات حياتهم ، وما يكتموه من مقاصد بالنظر إلى الموقع الذي هم فيه ، أو بالنظر لمصالحهم الآنيّة .

إمارة ذلك لدينا اليوم ، نحن الذين نخترق القرون مُحاولين استبطان خبيء نفوسهم ، أنّ شعرهم ينتهي دائماً إلى غير ما بدأ به . يبدأُ بالإصرار إلى حدّ الفخر بأسوأ ما ارتكبوه ، ولكنّه ينتهي إلى التنويه بما للحسين (ع) من مكانةٍ لديهم .

---

1 ـــ الديوان / 30 .

من ذلك أبيات الأخنس بن مُرثد الحضرمي ، الذي كان ممّن داسوا صدر الإمام وظهره بحوافر خيولهم ، ثم سمعناه يقول :

نحن رضضنـا الظّهرَ بعد الصّدرِ بكلّ يعبـوبٍ شديد الأسْـرِ

حتـى عصينـا اللهَ ربَّ الأمـرِ بصُنعنـا مـع الحسين الطُّهرِ[1]

من الواضح أنّ هذا كلامٌ صدر عن امرئٍ موزّع النفس بين مُحرّكيَن مُتضادّيَن. البيتُ الأوّل منهما موجّهٌ إلى السُلطة يُدلُّ عليها بصنيعه بما يُرضيها ، وهوصريحٌ بالفخر أو بما يُشبهه ، بأنّه ممّن رضّوا ظهر الإمام وصدره بأفراسهم رضّاً عنيفاً . أمّا الثاني فإنّه يعترفُ صراحةً بأنّه قد عصى الله تعالى بما صنع بـ " الحسين الطُّهر " (لاحظ الوصف) . أي أنّه يشي بما يعتملُ من ندمٍ خفيّ داخل ضميره المُتعَب .

مثل هذا التحليل يمكن أن نطبّقه أيضاً على بيتي سنان بن أنس ، الذي أجهز على الإمام بيده ، حيث خاطب علناً عُبيد الله بن زياد قائلاً :

أوقِـرْ ركـابـي فضـةً وذهبـا أنـا قتلتُ الملك المُحجّبـا

قتلتُ خيـرَ الناس أُمّاً وأبـا وخيرَهـم إذ يُنسبون نسبا[2]

بل حتى على أبيات يزيد :

صبـرنـا وكـان الصّبـرُ منّـا عزيمـةً وأسيافنا يقطعن هامـاً ومعصمـا

أبى قومُنـا أن يُنصفونا فأنصفتْ قواضبُ في أيماننا تقطرُ الدّمـا

نُفلّق هامـاً مـن رجـالٍ أعـزّةٍ علينـا وهـم كانـوا أعـقّ وأظلمـا[3]

حيث من غير العسير على القارئ اللبيب أن يقرأ فيهما مثل ذلك التّوزّع العميق ليزيد بين مُحرّكيَن مُتضادّيَن .

---

1 ـــ الديوان / 16 .

2ـــ الديوان / 17 .

3ـــ الديوان / 84 .

في هذا السّياق من النّدم الخفيّ ، بل الأشدّ خفاءً ، نضعُ بيتي يحيى بن الحكم ، حيث قال بمَسمعٍ من يزيد :

لَهـامٌ بجنْـب الطّـفّ أدنـى قـرابـةً   من ابن زياد العبد ذي النّسب الوغـل

سُميّة أضحـى نسلُها عـددَ الحصى   وليـس لآل المُصطفـى اليـومَ من نسـلِ[1]

من المُؤكّد أنّ هذه الغيرة المُفاجئة على " آل المُصطفى " ليست بريئة . بل هي ، فيما تدلُّ عليه التطوّرات السياسيّة التالية ، تعبيرٌ مُبكّر عن بدايات الانشطار الكبير بين شطرَيّ البيت الأُموي ، السُّفياني الحاكم والمرواني الرّديف ، على قاعدة مَن الذي يتحمّل المسؤوليّة عن ردّة الفعل الشّعبيّة الهائلة الغاضبة لجريمة يوم كربلا ، التي باتت تُهدّدُ أساس الدولة .

وكذلك القول في حرص أخيه مروان بن الحكم على الحضور حيث تخرج أُمُّ البنين إلى البقيع لتندب أولادها الأربعة[2] .

في البداية تقبل الشّطران قتلَ الإمام وما تلاه بأحسن القبول . مروان بن الحكم بوصفه كبير البيت المرواني رأى أنّ قتل الحسين (ع) قد ثبّت أوتاد ملك بيته . فتمثّل حين أبلغه ابنُ زياد الخبر بقول القائل :

ضـربـت دوسرُ فيهـم ضربـةً   أثبتت أوتـادَ مُلكٍ فاسـتقرّ[3]

أمّا يزيد فقد احتفل بالإنجاز المُذهل لعُبيد الله بن زياد ، حيث نجح في جعل المدينة العدوّة تقتل العدوّ الأوّل للدولة . فاستدعاه إليه ، وقـرّب مجلسه ، وجعله نديمه . وقد وقفنا فيما فات على الأبيات التي خاطب بها ساقيه :

اسـقني شَـربَــةً تُــروّي فؤادي   ثـم مِـلْ فاسـقِ مثلَهـا ابنَ زيـادِ

صاحـبَ السّـرّ والأمانة عندي   ولتسـديـد مغنمي وجهـادي

1ــ الديوان / 27 .

2 ــ الديوان / 48 .

3 ــ الديوان / 19 .

قاتِـل الخارجيّ أعنـي حسيناً   ومُبيـــد الأعــداء والحُسّـــادِ[1]

ولكن ما أن بدأت تظهر إلى العلَن إماراتُ الغضب العام ، وطفق الناس يلعنون يزيد في دمشق جهاراً ، حتى بدأ الانشقاق بين شطري البيت الحاكم . تحت طائلة أنّ البيت السفياني يتحمّل كامل المسؤوليّة عن الأسلوب والطريقة (الأسـلوب
والطريقة فقط) العلنيّة الاستفزازيّة عمّا جرى ، من قتل الإمام ، إلى دوس جسده الشريف بحوافر الخيول، وصولاً إلى استعراض النساء والأطفال في البلدان والأقطار . وذلك ، خصوصاً إهانة الميت و توهين المرأة ، لا سابقة له بين العرب لا في الجاهليّة
ولا في الإسلام . ولذلك فإنّه أشعل غضباً جماهيريّاً صاعقاً على طول الطريق الطويل الذي سلكه موكب السّبايا .

قي هذا السّياق بدأ مُسلسل الاغتيالات بين رجال الفريقَين . فدبّر المروانيّون قتل يزيد ثم ابنه معاوية بالتوالي . وردّ السفيانيّون باغتيال مروان بن الحكم . ثم قتل عبد الملك آخر رجلين كبيريَن في البيت السفياني : عمرو بن سعيد الأشدق ، والوليد بن عتبة . وكلُّ ذلك عرضناه بما هو أكثر تفصيلاً ووثّقناه في خواتيم كتابنا (موكب الأحزان) .

ما يهمّنا الآن من هذا السّرد ، أنّ ما وصفناه قبل قليل بـ " الغيرة المُفاجئة على
آل المُصطفى " من يحي بن الحكم ، والمُواساة الشّكليّة من أخيه مروان ، لم يكونا إلا تعبيراً عن لونٍ من ألوان النّدم على ما تقبّله الجميع في البداية بأحسن القبول . ومن المعلوم أنّ المروانيين استخدموا ردّ الفعل الشعبي سُلّماً ووسيلةً لانتزاع السُلطة من السُفيانيين ، والاستئثار بها حتى نهاية الحكم الأُموي .

---

1 ــ الديوان / 87 .

<u>**الباب الرابع**</u>

في (أوّل ما قيل في شهادة الحسين (ع)

تمهيد

هذا الباب هو أغنى أبواب الكتاب الخمسة بالمعاني والمغازي ، وأحراها منّا بالعناية والاهتمام . لِما فيه من عاطفةٍ صادقة . ثم لِما فيه من معانٍ اختزنت رؤيةَ الناس للفاجعة ، وكيف ارتكستْ في نفوسهم حزناً مُقيماً ، أو مُتفاعلةً مع همومهم المُستقبلة ، بعد أن افتقدوا بقتل الإمام مَن كان رجاءهم الوحيد في الخلاص من الطُّغمة الحاكمة ، التي انتزعت منهم كافّة حقوقهم المَشروعة في الحريّة والعدل . بحيث بات الإمام الحسين (ع) مُذ ذاك رمزاً حيّا ، يستحضرونه ويلجأون إليه كلّما ألمّتْ بهم أحزانهم وآلامهم ، وحرّكت أشواقَهم إلى حياةٍ خاليةٍ من الظلم والاستعباد . وما يزال كذلك حتى اليوم . وسيبقى حتى يملأها قسطاً وعدلاً .

(1) البُكائيّات

أكثر الشعر الحسيني المُبكّر تحريكاً للنفس والشّجى ، هو ذلك الذي تولّد تحت الوطأة المُباشرة للمأساة . فصدر ممّن اكتووا بنارها ، وشهدوا فصولها ، وفقدوا فيها أحبّتهم . نذكر في طليعتِها البيتيَن من الشعر اللذين قالتهما أمُّ كلثوم [1] حين اقتربت

---

1 ــ ثمة التباسٌ كبيرٌ على مَن هي أُمّ كلثوم هذه بالضبط .

والذي نظنّه ظنّاً أنّها سُكينة بنت علي دفينة بلدة داريّا في الغُوطة غرب دمشق ، إحدى بطلتَي كربلا مع الحوراء زينب الكبرى . ولكنّ ذكر هذه محا ذكر أختها ، فضلاً عن وجود سكينة أُخرى ، هي بنت الحسين (ع) . وظنُّنا أن بعض الكلام المنسوب إلى زينب بُعيد كربلا هو في الحقيقة لأختها الكبرى سُكينة هذه . انظر كتابنا (سُكينة بنت علي ومقامُها في داريّا) . وقارن : ابن الخشّاب البغدادي : تاريخ الأئمة ووفياتهم ، ط. قم 1432 هـ / 2001 م /ها 87 و93 . والطبرسي : تاج المواليد ، ط. بيروت1422هـ /2002م ضمن مجموع / 67. وعلى كلّ حال ، فإنّ البحث طويلٌ ومُتشعّب ، ولا غنى عن العودة إليه .

من المدينة عائدةً من دمشق :

أُمّ كلثوم

مـدينـــــةَ جـدّنـا لا تقبلينـــا فبالحسـرات والأحـزان جينـا
خرجنـا منكِ بالأهلين جَمعاً رجعنـا لا رجـــالَ ولا بنينـــــا[1]

وفيهما نشهدُ استحضاراً قويّا لمدينة رسول الله (ص) ، بوصفها البقعة التي شهدت انطلاقـةَ عزّ الإسلام وأهلِه ، وعلى رأسهم طبعاً الرسول (ص) وأهل بيته . أمّا الآن فهاهم يهمّون بدخلوها بقيةَ نساءٍ سبايا وبقيّة أطفالٍ كالأُسارى . فنراها توجّه خطابَها إلى المدينة ـ الرّمز ، مُتوسّلة إليها أن لا تقبلهم ، كي لا تحلَّ صورتُهم البائسة الآن ، محلَّ صورتِهم التّليدة العزيزة .

هي ذي صورةٌ شعريّةٌ أصيلةٌ قويّة ، تآزر في صياغتِها صدقُ الشعور مع براعة وقُوّة الخطاب . لذلك فإنّها تُحرّك مَخيلَة القارئ أو السّامع بسهولة إلى قلب الموقع الذي وجدت فيه أُمُّ كلثوم نفسَها وهي تهمّ بدخول مدينة جدّها . بعد أن عانَت ما عانته طوال أشهر من الحزن والقلق والامتهان . فتُطالب الموقع بأنْ ُشاركها هومَها وكأنّه كان معها .

والحقيقةُ التي يُدركها قارئٌ يتمتّع بقدرٍ كافٍ من الذّائقة الشعريّة ، أنّ التعبير عن الرّغبة في اجتناب دخول المدينة ، وإن أتى بنحوٍ وكأنّها تُناشدها بأن ترفضهم هي ، ليس إلا رفضاً لتأثير كلّ أشكال القسوة والامتهان على موقع الضّحايا ، أمام أنفسهم وأمام الآخرين . ومن هؤلاء مَن تعرف أنّهم في غاية الرّضى ، إلى حدّ الشّماتة ، عمّا جرى في كربلا وما تلاه ، كما رأينا في الباب الثاني من هذا الفصل .

أُمّ البنين

ذلك الرّفض المُقنَّع نقرأه أيضاً في أبيات أُمّ البنين ، زوجة أمير المؤمنين (ع) ،

---

2 ـــ الديوان / 37 .

وأُمّ أبنائه منه الأربعة الذين قُتلوا مع أخيهم :

لا تـدعـونّي ويكِ أُمَّ البـنـيـن   تُـذكّـريـنــي بليـوث العـريــن
كانت بنـونٌ لــي أُدعى بهـم   والـيـومَ أصبحـتُ وما من بنين
أربعــةٌ مثـل نُســـور الرُّبــى   قد واصلوا الموتَ بقطعِ الوتين
تنــازع الخُـرصان أشـلاءَهم   فكلّهـم أمســى صريعــاً طعيـن
ياليـت شـعري أكما أخبروا   بـأنّ عبــاســاً قطيـــع الــوتـيـن[1]

بل إنّ الرّفض هنا أبين وأعمق مغزىً ، لأنّه تناول كنية صاحبته ، التي اكتسبتها ممّا هو موضع فخرها ، إذ منحت زوجها أكبر عددٍ من الذكور من أُمٍّ واحدة. وثمة روايةٌ تتردّد كثيراً ، تقول أنّ الإمام تزوجها رغبةً بخؤولةٍ لأبنائه المُتوقّعين منها ممّن هم معروفون بالشّجاعـة والإقـدام . وبالفعل كان أبناؤه منها كما وصفتهم أُمُّهم " أربعةٌ مثل نسور الرُّبى " . ولكن ها هي أمّهم الثكلى بهم تُخاطب الآن صاحبةً مُفترَضَةً لها بخطابٍ صارمٍ فاتحتُهُ " ويكِ ! "تنهاها عن أن تدعوها أُمَّ البنين ، لأنّ أُولئك البنين جميعاً لم يبقَ منهم أحد ، قد "واصلوا الموت" (لاحظ ما في هذه الجملة الشّعريّة من ابتكار [2]) و "تنازعَ الخُرصان (صغار وحوش الفلاة) أشلاءَهم".

إنّ رفض مايُذكّرها بأبنائها ليس لأنّها ترغب في نسيانهم ، بل كأنّها كصاحبتها أُمّ كلثوم تريد أن لا يُذكّرها أحدٌ بهم ، بنحو لا يوحي بالمُشاركة بالحزن وبالمواساة الحقيقيّة لها . وفي رأس هؤلاء ، ربما ، مروان بن الحكم ، الذي عرفنا قبل قليل أنّه كان يحرص على الحضور في المجالس التي كان تعقدها أُمُّ البنين في البقيع لتندب أبناءها .

---

1 ــ الديوان / 48 .

2 ــ عندما أُعلمت أُمُّ الشهيد عماد مغنيّة بمصرع حفيدها منه الشهيد جهاد ، بعد أبنائها الثلاثة الشهداء ، قالت بلهجتِها العامليّة : " فكّرتْ حالي خلِصتْ ، تاري الموت متواصل " . وهي هي الصورة نفسها التي عبّرت عنها جملةُ أُمّ البنين أي الموت المُتواصل . فكأنّ الأُمّين تنزعان من المَعين الشّعوري نفسه : الحزن المُتجدّد ، على ما بينهما من فاصلٍ زمنيٍّ طويل .

ونحن قد فهمنا قبل قليل من هذا السّلوك المُتعاطف من الدّاهية مروان ، أنّه رغبةً منه
في التّمايز عن أبناء عمّه السّفيانيين في الموقف من جريمتهم في كربلا . وفي التّعاطي بشيءٍ من الإيجابيّة وإظهار التّفهُّم مع الغضب الشعبي الكاسح ، الذي بدأتْ معالمه في الظهور ، بحيث انتهت إلى إعلان المدينة نزْع الطاعة للحكم من رأس ، وانتهى إلى يوم
الحَرّة الرّهيب . ونُضيفُ الآن أنّ اختيارَه مجلسَ أُمّ البنين بالخصوص يدلُّ على ما كان لندبها من تأثيرٍ بالغٍ وحضورٍ واسع وصدىً تردّد في مجتمع المدينة . طبعاً بالإضافة إلى الدّور المُميَّز للحوراء زينب ، وربما أيضاً لأُختها أُمّ كلثوم .

الشّحنة الشّعوريّة القويّة نفسها نجدُها في أبيات النّدْب الأُخرى التي خصّت بها أُمُّ البنين ابنَها العباس :

يـــا مَـن رأى العبّـــاسَ كـــــــــــرّ علـى جماهيـــر النّـقَـد[1]
ووراه مـــن أبنــــاء حيــدر كـــلُّ ليـــثٍ ذي لبـــــد
أُنـبـئـتُ أنّ ابنـي أُصـيـــــــــــب برأســه مقطوع يــــــد
ويلـــي علـــى شـبلـــي أمــــــــال بـرأســه ضربُ العَمَد
لو كـان سـيفٌ في يـــــــــــديه ما دنــا منــــه أحـــد[2]

لكنّها هنا تنطوي على فخرٍ مكتومٍ بشجاعته ، وهو يقود أخوته في المعركـة اليائسة ، بحيث أنّه مع قطْع يده ، أو بالأحرى يديه كلتاهما ، ومع ما لقيه من ضرْب رأسه بالعَمَد ، لو كان في يده سيف ، وبالأحرى أيضاً لو كان له يدٌ تحملُ السيف ، لَما دنا منه أحد .

إنّها الأُمومَة بوجهها الآخَر ، الذي لا يقلُّ أصالةً عن سابقِه ، حيث لا يحولُ الحزنُ المُقيم بينها وبين أن تفتخر بمَن أنجبت ، شأنَ كل الأُمهات .

---

1 ـــ صغار الأغنام / الحُملان .
1 ـــ الديوان / 49 .

الرّباب

الأبيات البُكائيّة للرّباب ، زوجة الحسين (ع) الحبيبة :

إنّ الذي كان نوراً يُستضاءُ بـه في كربـلاء قتيلٌ غير مَدفـــونِ
سبطَ النبي جـزاك الله صالحةً عنّا وجُنِّبـتَ خسران الموازينِ
قد كنتَ لي جبلاً صلْداً ألوذ به وكنتَ تصحبنا بالرّوْح والدينِ
مَن لليتامى ومَن للسّائلين ومَن يُغني ويأوي إليه كـلُّ مسكينِ
والله لا أبتغي صهـراً بصهركمُ حتى أُغيّب بين اللحد والطينِ[1]

تبدو لنا قاصرةً بمسافةٍ طويلةٍ ، بما حملته من شحنةٍ شعوريّـة ، عن المستوى
الباهر الذي قرأناه لدى أُمّ كلثوم وأُمّ البنين .

الفارقُ بين المُستويَين لا يقتضي كثيرَ بيان . إنّه كامنٌ في الفارق بين العلاقة الأصيلة بين الأُمّ التي حملتْ وأرضعتْ وربّتْ . وبين الزوجة ، التي مهما يشدّها الحبُّ إلى زوجِها ، فإنّ علاقتها به تبقى علاقةً عارضةً على مَسار حياة كلٍّ منهما . قوامُها الرّغبة لدى الطرفين ، في أحسن أحوال ما بينهما ، في استمرار العلاقة وثباتِها ، بما تمنحه من راحةٍ وسُكونٍ وسكينةٍ لدى كلٍّ منهما عند وإلى الآخَر ، وبما فيها من مصلحةٍ أكيدةٍ لدى كلٍّ منهما في بقاء الآخَر . وذانك أمران عبّرتْ عنهما الرّباب في شعرها بكامل الوضوح .

الحسين (ع) بالنسبة إليها هو سبط النبي (ص) ، والذي يُغني ويأوي إليه اليتامى والسّائلون والمساكين . أي الجامع في شخصه لمحاسن الصفات العفويّة والمُكتسبَة التي ترغبُ فيها كلُّ زوجة . ثم هو الجبل الصّلد الذي كانت تأوي إليه ، والزوج الذي صحِبها بما يقتضيه الدين والطّبع السّليم . وبقتله خسرت كلّ ما كانت ترتعُ فيه من رِفعةٍ وحُسْن صُحبة وقوّةَ مَلاذ .

1 ـــ الديوان / 47 .

تلك معانٍ سهلة وبسيطة ومُفتقرةٌ إلى الشّاعريّة وروح الشعر . جادت فيها الزوجةُ المفجوعةُ من موجودِها . ولكنّها بما قالته عبّرت بأمانةٍ وصدق عمّا عمر نفسها دون أدنى مُبالغة .

والتقييم نفسه يمكن أن يصحّ بالنسبة لما كانت الرّباب تندب به زوجها :

واحسـيناً فـلا نسيـتُ حسينـاً أقصدتـه أسـنّةُ الأعـداءِ

غـادروه بكربـلاء صـريعـاً لا سقى اللهُ جانبي كربلاء [1]

فتلك نماذج ثلاثة ممّا وصلنا من الشعر الحسينيّ المُبكّر ، كما صدر عمّن اكتووا بنار كربلا ، وشهدوا فصولها ، وفقدوا فيه أحبّتهم . فجاء شعرهم بمُختلف مُستوياته مُعبّراً بصدق عن حزنهم المُقيم وخسارتهم التي لا تُعوّض .

(2) الشعر التّحليلي الانطباعي

نعني به ذلك النّمط من الشعر الرّثائي ، الذي أودع فيه الشاعرُ فهمَه ورؤيتَه للحَدَث الكربلائي ومُختلَف تفاعلاته ، وما قد أنتجته هذه على الصّعيدَين السياسي والاجتماعي . أو استبطن في ذاته

والحقيقةُ التي سنعملُ على أن يلمسها القارئ ، أنّ هذا النّمط من الشعر أكثرُها غنىً بالمعاني والمغازي . بحيث تملأُ الفراغ الذي يفشل المؤرّخ في بيانه . إمّا لأنّه في قلب الحَدَث ، حيث يتعذّر عليه أنْ يُقدّره بكامل ما يعنيه ويقودُ إليه ، وإمّا لأنّه لا يملك المقدرة الكافية على تركيب المعلومات ، فنراه يسوقُها أحداثاً مُنفصلة ، ليست تعني الكثير بالنسبة للقارئ العادي ، إنْ هو لم يحظَ فيما بعد بالباحث الأهل الذي يأخذ على عاتقه مُهمّة تركيبها . هذا إنْ لم يكُن مُفتقراً إلى الحياد وسلامة الطّويّة ، كما هو شأنُ أكثر مؤرّخينا .

إنّ عظمة الشعر والشاعر كامنةٌ في أنّه يملك القُدرة الفائقة على النّفاذ إلى قلب

---

1 ــ الديوان / 57 .

الجمهور ، ليصوغ رؤيتَه في قالبٍ شعريّ ، ثم ليعودَ إلينا ويده ملئَ بما هو خبئٌ كامنٌ من مشاعر ورَجْع وحوافز الناس ، الصّانعُ الحقيقي لحركة التاريخ .

عقبة بن عمرو السّهمي

أجملُ وأكملُ نماذج هذا النَّمط من الشعر ، هو القليل الذي وصلنا من شعر عقبة بن عمرو السّهمي . وهو شاعرٌ لا نعرف عنه ما يُذكِر . بحيث أنّنا لم نظفر بترجمـةٍ
مُستقلّةٍ له في كلّ المَظانّ الكثيرة التي تحت يدنا . ولا ذكرَ له في أُمّهات كُتُب التأريخ . وإنّما يُذكر بمناسبة الاستشهاد بالمقطوعتيَن المنسوبتيَن له ، اللتين أوردناهما في الفصل الأوّل ، وسنعودُ إليهما في هذا الفصل .

كلُّ هذا مع أنّ ما وصلنا من شعره يدلُّ على شاعرٍ في أعلى درجات الإجادة . كما أنّ بعض شعره على الأقلّ ما كان محفوظـاً مُتـدَولاً حتى القرن الرابع للهجرة / العاشر للميلاد على الأقلّ ، بدليل أنّ أبا يوسف القزويني استشهد أمام أبي العلاء المعرّي بقصيدةٍ من شعره ، على أنّ من الشعر في رثاء الإمام الحسين (ع) ما يستحقُّ أن يُحفَظ . مع مُلاحظة أنّ القزويني لم يذكره باسمه ، بل بأنّه " من أهل سوادنا " . ممّا قد يُفهَم منه أنّ الشعر أعرف من الشاعر مذ ذلك الأوان . فلا غرو بعدُ أنّنا لم نجِد له ذكراً ، كما قلنا .

وهي قولُه :

رأسُ ابـن بنـت محمـدٍ ووصيّـه ... للمسـلمين علـى قنـاةٍ يُرفـعُ

والمسـلمون بمنظـرٍ وبمسمعٍ ... لا جازعٌ منهـم ولا مُتـفجّـعُ

أيقظتَ أجفاناً وكنت لها كـرىً ... وأنمتَ عينـاً لم تكُن بك تهجـعُ

كُحلـتْ بمصرعك العيون عمايـةًًًً ... وأصـمّ نعيُـك كـلُّ أُذنٍ تسـمعُ

ما روضـةٌ إلا تمنّـت أنّهـا ... لك مضجعٌ ولخطّ قبرك موضـعُ[1]

1 ـ الديوان / 38 . وارجع إلى ما عنونّا به القصيد هناك لتعرف مُلابسات رواية أبي يوسف لها .

القصيدة على صغرها غنيّةٌ بالمعاني . فمنها ما يعكسُ انفعالاً للشاعر تجاهَ بعض ما رافق مأساة يوم كربلا ، يمكنُ اعتباره أيضاً تحليلاً أو جزءاً من تحليلٍ سياسيٍّ للقضيّة من رأس . ومنها ما هو من قلب وظيفة الشاعر ، التي قُلنا قبل قليل أنّها النّفاذ إلى قلب الجمهور ابتغاء اكتشاف خبيئه . والختامُ تقديسٌ لمضجعه / قبره لأنّه فاز بما تتمنّاه كلُّ روضةٍ من رياض الدنيا .

هذا ، وإنّ جزءاً أساسيّاً من براعة الشاعر هنا ، توزيع القصيدة إلى تلك العناصر الثلاثة منفصلة . ولكنّها ، بتواليها المَدروس ، تتآزر على الإمساك بتلابيب انتبـاه السّامع أو القارئ ، بحيث تقوده في الاتجاه المناسب تماماً لغرض الشاعر .

في البيتيَن الأوّليَن كأنّ الشاعر يُحاول أن يوقظ السّامع على الحقيقة الفظيعة ، التي تتجاوز الإقدام على قتل الحسين (ع) ، بل أكثرُ في أنّ رأس مَن

هو ابن بنت رسول الله(ص) وابن وصيه ، يُرفَع على قناة ويُطافُ به في البلدان ، تحت نظر وسَمْع
"المسلمين "دون أن يصدرَ منهم أيّ ما يدلُّ على أنّ المنظر قد حرّك فيهم شعوراً بالحزن والفجيعة .

هذا المَنظور المُتجاوِز نراه يستعيدُ ، بما يتضمّن من الاستنكارِ والتّحريض ، تفصيلاً من خطيئة عُبيد الله بن زياد الكبرى . ذلك إذ عمد إلى تنظيم موكب السّبايا ، الذي نعرف أنّه كان من أقوى أسباب انفجار الغضب الشعبيّ الهائل في المنطقة الشّاميّة حيثما سلك الموكب . وأودى إلى القضاء على البيت السفياني الحاكم معنويّاً وماديّاً قضاءً مُبرما ، كما بيّنّا فيما سبق .

ثم أنّ هذا المنظور نفسه يدلُّ على أنّ الشاعر خرج بقصيدته على الناس قبل أن تبدو مفاعيل ذلك الغضب عملَها التدميري على قُوى السُلطة . ولو انّ ذلك حصل في وقتٍ متأخّرٍ قليلاً ، لَما تسنّى له أن يقول ما قاله على بَلادة ارتكاس " المُسلمين " على منظر رأس الإمام مرفوعاً على قناة . بل لربّما خرج بقصيدةٍ أو أكثر يصِفُ فيها انفجارَ غضب الناس ، وما أودى إليه .

هذا التحليل يؤيّد ما قاله الشيخ الطوسي ، أنّ هذه الأبيات هي أوّل ما قيل في رثاء الحسين) ع) [1] .

لكنّ الشاعر ، بما يتمتّع به من رؤيةٍ نافذةٍ ، لا يلبث أنْ ينقلَ انتباهَ السّامع في البيت الثالث من القصيدة باتجاه أوّلِ ما تمخض عنه قتلُ الإمام . أعني الانطباعَ الأوّلَ والأساسيّ إجمالاً عن قتل الإمام ، الذي فرزَ الناس على قاعدته إلى فريقيَن :

ــ الناس المُتحرّرون من الارتباط النّسَبي أو العملاني بالسُلطة الفعليّة . والذين يتطلّعون بآمالهم إلى اليوم الذي تنهض فيه الدولة العادلة ، على أنقاض الطُغمة الحاكمة . هؤلاء كان الإمام معقِدَ أملهم الوحيد . فلما رأوه صريعاً أُسقط ما في أيديهم وفقدوا كلّ أملٍ بما كانوا يرجون . (أيقظتَ { الإمام } أجفاناً وكنتَ لها كرىً) .

ــ فريق السُلطة والمُرتبطين بها بنحوٍ ما . وهؤلاء لم يفهموا لأوّل وهلةٍ من كل ماارتكبوه ، إلا أنّه خلّصهم من التّهديد الوحيد الذي كان يُمثّله الإمام . فلمّا قتلوه أو عملوا على قتلِه أو رضوا به ، باتوا مُطمئنين مرتاحين من همومهم (وأنمتَ عيناً لم تكُن بك تهجعُ) . وقد رأينا فيما سبق مروان بن الحكم يُعبّر تعبيراً صريحاً عن انطباع هذا الفريق ، قبل أن تبدأ تفاعلات الحدَث بالعمل باتجاهٍ مُعاكس كما قلنا غير مرّة . وذلك إذ تمثّل بعدما بلغه ما جرى في كربلا بقول القائل :

ضـربـتْ دوسرُ فيهم ضربـةً أثبتت أوتـادَ مُلكٍ فاستقرّ[2]

وما مقصود مروان من استعارة الضربة التي ضربتها " دوسر" فثبّتتْ أوتاد ملكها إلا قتل الحسين (ع) .

---

1 ــ الأمالي : 1 / 92 .

2 ــ الديوان / 19 . ثم انظر ما علّقنا به على البيت في الباب الثاني من الفصل الثاني .

والمعنى الذي طرقه الشاعر هنا يتردّد غير مرّةٍ في الشعر الحسينيّ المُبكّر . وسنقفُ عليه فيما هو آتٍ إنْ شاء الله . كما أنّه يُؤيّد ايضاً ماقاله الشيخ الطوسي ، وأشرنا إليه قبل قليل .

البيتان الأخيران من القصيدة هما من الشعر الانطباعي ، الذي ينطوي الشاعرُ فيه إلى داخل ذاته ، فيُحدّثنا عمّا عمر نفسه في لحظةٍ من لحظات الانفعال ، أو أزاء موضوعٍ بعينه حرّك جنانه . وها هو في شعره يُحاول أن يُعدي قارءه أو سامعه بما في نفسه . بخلاف الأُنموذج السابق الموضوعي التحليلي الذي يتعامل فيه الشاعر مع الآخَر . أودع فيهما (البيتيَن)الشاعرُ رؤيتَه الخاصّة ذات العلاقة بالتصنيف السّابق وموقعه منه ، الذي كان يضعه في الجانب الخاسر القلق على المستقبل ، بعد أن أُسقط ما في يده هو ايضاً . وذلك من حقّ الشاعر حتماً . فالشاعر هو في النهاية إنسانٌ ، لـه ميولُه المَشروعة ، وله وُجهة نظره في الأُمور العقيديّة والسياسيّة . ويملك حريّةَ التعبير عنها في شعره وفي غير شعره . كما أن له حقّ التعبير عمّا يُقلقه .

انطباع الشاعريدورُ على اثنين : الإنسان والأرض ، خسرانا للأول ، وفوزاً للثانية .

الإنسان الذي رأى بأُمّ عينه منظر رأس الحسين على قناةٍ ، كان المنظرُ بالنسبة إليه كالكُحل الذي يودي إلى العمى . أمّا صوتُ نعيه فهو مورثٌ للصّمَم . وناهيك بكُحلٍ يُعمي وبصوتٍ يُصمّ . ومن الواضح للخبير بالشعر ، أنّ تفليقَ الشاعر هـذا المعنى لا يخلو من ابتكار . خصوصاً تعليق العمى على الكُحل ، مع أنّ من شأنه ، حسب مفهوم الشاعر ، أن يجلو البصر .

امّا الأرض التي حوت جسده الشريف فقد فازتْ ، بحيث أنّه لم يبقَ روضةٌ من رياضِها إلا وتمنّت أن تكون له مضجعاً . وبذلك يُسقِطُ الشاعر ما تُكنّه نفسه من تقديرٍ عالٍ لسيّد الشهداء على كلّ ما في الدنيا من رياض ، بحيث تتنافس فيما بينها على شرف أن تكون مضجعاً له .

القصيدة الثانية للشاعر نفسه :

إذا العينُ قرّتْ في الحياة وأنتمُ تخافون في الدنيا فأظلم نورُها
مررتُ على قبر الحسين بكربلا ففاض عليه من دموعي غزيرُها
وما زلتُ أبكيه وأرثي لشجوه ويُسعدُ عيني دمعُها وزفيرُها
وناديتُ من حول الحسين عصائباً أطافتْ به من جانبيَه قبورُها
سلامٌ على أهل القبور بكربلا وقَلّ لها منّي السّلامُ يزورُها
سلامٌ بآصال العشيّات والضحى تؤدّيه نكباءُ الرّياح ونورُها
ولا برح الزّوّارُ زُوّارقبره يفوح عليهم مسكُها وعبيرُها[1]

فالذي يبدو للقارئ من البيت الثاني منها ، أنّ الشاعر قد نظمها تحت تأثير زيارته الأُولى (هل كانت الأُولى بالفعل ؟) لضريح الإمام الحسين (ع) في كربلا . ومن هنا نراها تنضح بالشّجى والحزن . خلافاً لقصيدته الأُولى حسب ورودها عندنا ، التي غلب عليها التحليلُ الموضوعيّ العميق ، ما قد يدلُّ على أنّها هي الثانية بالنّظر لتاريخ نظمها ، بعد أن حلّ التأمّل والتّفكُّر محلَّ اللحظة ولوعتها . أمّا هذه فهي الأُولى بالنظر لتاريخ نظمها أيضاً .

الشجى أحيى في ذاكرة الشاعر كلَّ ما قد نزل بأهل البيت (ع) من البلايا ، إلى درجة أنّهم باتوا لايجدون الطمأنينة والسّلام ، أينما حلّوا في أقطار وبلدان الدنيا . وفي ظلّ هذا الخوف المُقيم الذي عانوا منه ، باتت كلُّ عينٍ لا تواسيهم فيما هم فيه على مُستوى الشعور ، فتقرُّ في الحياة ، وتطمئنّ وتستريح إليها ، أهلاً لأن تُصاب بالعمى .

---

1 ــ الديوان / 39 .

ولا يفوتُنا أنْ نلاحظ هنا أيضاً ما في تفليق الشاعر المعنى ، الذي أوحت به مشهدُ القبور ، من ابتكار . وفي ذلك يتنافس الشعراء .

مابقي من القصيدة يحشد فيه الشّاعرُ كلَّ ما اختزنته نفسه من لوعةٍ وشجى ، في تلك اللحظة الحزينة ، لحظة وُقوفه على قبور الشهداء المُطيفة بضريح سيّدهم . فنراه يُناديهم بأسمائهم (؟) ، وإنْ هو لم يذكرها اسماً اسماً ، نداءً مشفوعاً بالسّلام مُعاداً مُكّرّراً . لينتهي إلى استبقائهم أحياء في نفوس زائريهم على مَدّ الزّمان وكَرّ الأعوام ، عن طريق مُداومة زيارة قبر الإمام وقبورهم . وفي ذلك ما يدلُّ على أن شعيرة الزّيارة لتلك القبور كانت قد بدأت فورَ دفنهم . وهو ، على كلّ حال ، ليس الدّليل الوحيد على ذلك .

قبل أن نُغادر هاتين القصيدتيَن الرّائعتين وصاحبهما ، لا يفوتنا أن نُسجّل أسفنا العميق لضياع سيرة هذا الشاعر المُبدع كما أشرنا أعلاه . وأسفنا أيضاً لضياع ما لا بُدّ أن يكون له من شعرٍ غيرهما . ذلك لأن شاعراً على هذا المُستوى من الإبداع والإجادة ، وعلى هذه الدرجة من سُكنى القلب بما لمسناه عنده من لوعةٍ صادقة ، من المُستبعّد جدّاً أن يكون شعره على الموضوع نفسه على الأقلّ ، قد اقتصر على هاتين القصيدتيَن القصيرتيَن .

سليمان بن قَتّة

الشاعر الثاني الذي يدخل شعره تحت عنوان الباب ، هو سليمان بن قَتّة العَدوي التيمي بالولاء [1] (ت : 126 هـ / 743 م في دمشق) . تابعيٌّ يُقـالُ أنّه كـان

---

1 ــ انظر الترجمة له في : ابن شهرآشوب المازندراني : معالم العلماء ، ط. بيروت ، دار الأضواء ، لات. / 152 , والزبيدي : تاج العروس ، ط. الكويت في سنوات متعددة : 1 / 571 وغيرهما .

و(قَتّة) اسم أُمّه . وهو سليمان بن حبيب المُحاربي . انظر : مقاتل الطالبيين / 84 ها . فخروجه من اسم أبيه إلى اسم أمّه ، ومن نسبه في بني مُحارب إلى ولائه في بني تيم الله يُخفي وراءه قصةً ضائعة .

مُنقطعاً إلى بني هاشم . وله قصيدةٌ في منتهى الجمال في رثاء الإمام الحسن (ع) ، ممّا قاله فيها :

كُنتَ خليلي وكُنتَ خالصتي [1]

ما يدلُّ على علاقته القديمة والمتينة ببني هاشم .

لابن قَتّة قصيدتيَن من الشعر المُبكّر في الإمام الحسين (ع) أُولاهما :

مـررتُ علـــى أبيــات آل محمـــدٍ فلـم أرَهـــــا أمثالَهـا يــــومَ حلّـــتِ

فـــلا يُبعدُ اللهُ الديــــارَ وأهلَهــا وإن أصبحـت منهـم برغمـي تخلّـتِ

وإنّ قتيلَ الطّــفّ من آل هاشــمٍ أذلّ رقــــابَ المُسلميــن فــذلّـــتِ

وكـانوا غياثـــاً ثم أضحوا رزيّــةً لقد عظُمــتْ تلك الرزايا وجـلّـتِ

وتسـألُنا قيسٌ فنُعطي فقــــيرَهـا وتقتلُنــا قيـــسٌ إذا النعــل زلّــــتِ

وعنـد غنــيٍّ قطــرةٌ مـن دمائنـــا سنطلبُهـــا يــومــاً إذا هــي حلّـــــتِ

ألم تـرَ أنّ الشمس أضحتْ مريضةً لفقـــدِ حسـينٍ والبـلادَ اقشــعـرّتِ

وقـد أعـولت تبكي السماءُ لفقده وأنجمُنــــا نــاحـتْ عليــه وصلّـــتِ[2]

القصيدة ، كإحدى قصيدتَي عقبه ، نظمها الشاعر أثناء أو بُعيد زيارته لضريح الحسين (ع) . بل إنّ من المصادر ما يُحدّد فيقول ، أنّ تاريخ الزيارة كان بعد ثلاثة أيام من المَصرع . وقد أشرنا إلى ذلك بموضع ذكرها من الديوان . وذلك أمرٌ مُستبعَدٌ جدّاً، نظراً للأحوال البالغة الاضطراب التي قامت في ساحة المعركة في ذلك الأوان . ثم أنّ ذلك يقتضي أن يكون الشاعر أثناءها في الكوفة أو في مكانٍ قريبٍ منها . وذلك ما لم يقُله الشاعر ، وهو حريٌّ بالذكر لو انّه كان . وعلى كلّ حال ، فإنّ من الثابت أنّه نظمَها أثناء أو بُعيد الزيارة كما قُلنا أعلاه ، بشهادة قوله في مطلع القصيدة :

---

1 ــ مقاتل الطالبيين / 84 ومناقب آل أبي طالب : 4 / 51 .

2ــ الديوان / 40 .

مررتُ على أبيات آل محمدٍ

وما من ريبٍ في أنّه عنى أبيات آل محمد في كربلا .

مهما يكُن ، فإنّ الشاعر حشد في قصيدته عناصر تحليليّة موضوعيّة ، إلى جانب أُخرى انطباعيّة ذاتيّة .

فمن الانطباعيّ قوله أنّ الشمس أضحت مريضةً ، وأنّ البلاد اقشعرّت ، وأنّ السّماء تعول باكيـةً ، وأنّ النجوم تنوحُ وتُصلّي ، كلُّ ذلك لأنّها فقدت الحسين (ع). تلك كلها صُورٌ شعريّةٌ ، أودع فيها الشاعر ما عمر نفسَه المَكلومة من شعورٍ بالفجيعةٍ ، تفاعلت داخلَ ذاته بحيث أنتجت تلك الصُّوَرَ العجيبة .

ولا يذهبنّ بقارئٍ الظنُّ إلى أنّ تصوير تلك القوى والمعالم الكونيّة ، وقد فقدتْ صفاتها المألوفة ، لحساب صفاتٍ طارئةٍ ، فتمرضُ وتقشعرُّ وتبكي وتنوحُ وتُصلّي ، هو من المُبالغة الممجوجة . كلا ، بل هي تماماً مثلما أن يقول القائل في موقف سَوْء ، أنّ الدنيا قد اسودّت في عينيه ، مع أنّها ما تزال موضوعيّاً كما هي ، وكما هو شأنُها دائماً .

ذلك أنّ الأحداث القاسية أو العنيفة أو المؤثّرة قد تُنتجُ في نفوس البشر من الانطباعات أو الارتكاسات ما قد ينعكسُ على العالَم من حوله ، فيّصوّره عالَماً آخَر بمواصفاتٍ مختلفة . هو حقّاً غير صادقٍ موضوعيّاً ، ولكنّ تأثّر صاحبه به وتفاعله معه لايقلّ عن تأثّره وتفاعله مع ما هو موضوعيٌّ بالفعل . عملُ الشاعر عليها هو أن يصوغ انطباعاته الصّياغة الإبداعيّة المُناسبة ، مُستعيناً بما في الشعر من سحر . ابتغاء أن ينقلَ إلى القارئ أو السّامع ، أو بالأحرى ، يُعديهما بما سكن جنانَه من انفعالٍ أخّاذ . ولو انّه قالها منثورةً ، عاريةً من قالبها الشّعري ، لأتتْ تافهةً خابيةً لا تُحرّك النفس . بل نقول ، أنّه لذلك سُمّي هذا النّمط من الشعر بالانطباعي . لأنّه يُصوّر انطباعات صاحبه . ومن المعلوم أنّ صاحب الانطباع ، شاعراً كان أو غير شاعر ، هو وحده المؤتمن على خبيئة نفسه .

مهما يكُنْ تقديرنا عالياً لانطباعات الشاعر في قصيدته ، فإنّنا نراه يتفوّق على نفسه في الجانب التحليلي الموضوعي منها ، مع أنّه لم يمنحه من مساحة القصيدة إلا بيتيَن اثنيَن :

وإنّ قتيلَ الطّـفّ من آل هاشـمٍ أذلّ رقـابَ المُسلميـن فـذلّـتِ
وكـانوا غياثـاً ثم أضحـوا رزيّـةً لقد عظُمـتْ تلك الرزايا وجـلّـتِ

ولكنّنا نراه قد عوّضنا عن صغر الحجم بعُمق الرؤية وشمولها . فأتانا بهما (البيتيَن) مُكثّفيَن حافليَن بالمعاني ، إلى درجة أنّ القارئ العادي الذي يقرأهما اليوم ، بعد أن فصله كرُّ الأعوام عن بيئة الحدَث ومواصفاتِها ، بات غير قادرٍ على استيعاب التحليل الدقيق والشّامل الذي ضمنّه الشاعر كلَّ بيتٍ من الاثنيَن . هنا يأتي دورُ النّاقد الخبير في تفصيلٍ وبيان ما أجمله الشاعر .

البيت الأوّل :

وإنّ قتيلَ الطّـفّ من آل هاشـمٍ أذلّ رقـابَ المُسلميـن فـذلّـتِ

هذه هي الرواية المشهورة المُتدَاولَة في المصادرللبيت . ولكنّنا كُنّا قد أشرنا فيما
سبق إلى روايةٍ أُخرى هي الأصيلة ، بحسب صُدورها عن الشاعر ـ تقول :

أذلّ رقاباً من قريشٍ فذلّتِ

ولكنّه تقبّل التّصحيح إلى الصيغة المشهورة [1]

المعنى المُشترَك بين الصيغتيَن كامنٌ في المسافة القصيرة ما بين فعل الإذلال ، وبين صيغة المُطاوعَة في كلمة " فذلّت ". (العطفُ بالفاء يدلُّ على الترتيب باتصال) . وهو يمنح الحدّث الكربلائي معنىً إضافياً إلى قتل شخص الإمام ، هو المعنى نفسه الذي ردّده مروان بن الحكم إذ تمثّل بقول القائل :

1 ـــ جاء في مقاتل الطالبيين / 121 أن عبد الله بن الحسين قال للشاعر بعد أن سمع القصيدة منه :
" أذلّت رقاب المُسلمين فذلّتِ " . فقال ابنُ قَتّة : أنت والله أشعر منّي .

ضربـت دوسرُ فيهـم ضربـةًأثبتت أوتـــادَ مُلكٍ فاسـتقـرّ

الذي يأُول في جُملة ما يأول إليه ، إلى أنّه بعد أن أقدمت السُلطة على قتل مَن هو في المقام العالي الذي كان للحسين (ع) عند الكافّة ، فإنّه لم يعُدْ ثمّة مَن يأمن على نفسه ، اتّكالاً على أنّها لن تجروء على النّيل منه ، نظراً لمكانته أوموقعه الاجتماعي أو الديني . . . الخ. بل إنّها بعد قتل الحسين (ع) لن تتردّد في قتل أيّ مَن تُحدّثه نفسُه بأن يخرجَ عليها أيّاً يكُنْ . أي أن قتله ليس فقط قد حرّرها من سبب الخوف الوحيد الذي كان يُمثّله الإمام ، كما قُلنا فيما سبق ، ولكنّه بالإضافة إلى ذلك كان بمثابة رسالةٍ مُوجّهةٍ إلى كلِّ مَن سواه ، وظيفتُها أنْ تنتزع منه كلَّ ما هو تحت عنوان الشجاعة والعزّة والعنفوان . وبذلك تُذلّه غايةَ الإذلال . غاية الأمر أنّ الشاعر في الصّياغة الأُولى قد نظر إلى مَن هو " من قريش " فقط . أمّا عبد الله بن الحسين فإنّه عمّمها إلـى " المُسلمين " قاطبة . وعلى الرّغم من أن ابن قَتّة قد تقبّل التّصحيح ، بل ورأى فيه إمارةً على أنّ عبد الله بن الحسين أشعرَ منه ، فإنّنا نرى ، إن نحن نظرنا إلى الأمر بنظرةٍ واقعيّةٍ ، أنّ الصياغةَ الأُولى أصدق . لأنّ قريشاً كانت إذ ذاك ، وإلى ما بعدُه بزمنٍ طويل ، المصدرَ الوحيد لتداوُل السُلطة أو لإنتاج المُنتفضين عليها .

طبعاً هذا كلّه يصحُّ إن نحن لم نفهم من (الـذُّلُ) معناه النفسي الذي يُحبط المرء أمام نفسه قبل إحباطها أمام الآخرين . ومن ذلك النمط من الذُّلّ الذي ينزل بالمرء أو بالجماعة إذ يُنالُ من مُقدّساتها أو رموزها من قِبل قوّةٍ قاهرة ، دون أن يكون في وُسعها الدّفاع عنها . وهو معنىً ينطبق على الحسين (ع) بوصفه إماماً عند مَن يعتقد إمامته ، أو بوصفه على الأقلّ فرع رسول الله (ص) وريحانته . . . الخ. كما هو عند جميع المسلمين. ومن الواضح أنّ هذا المعنى يناسب أو قد نظرتْ إليه الصيغةُ التي اقترحها عبد الله بن الحسين . وليس يُناسب الصيغة الأصليّة التي حصرت الذلّ الموضوعي ـــ السياسي برقاب قريش .

البيتُ التالي :

وكـانوا غياثـــاً ثـم أضحـوا رزيّـةً   لقد عظُمـــتْ تلك الرزايا وجـلّـتِ

أعمقُ غَوْراً . وهو يُشبه ما رمى إليه عقبة السُّهمي بقوله :

أيقظتَ أجفاناً وكنتَ لها كـــــرىً   وأنمتَ عينــاً لم تكُن بــك تهجــعُ

وهو معنىً كثُرَ طُروقُه في الشعر الحسيني المُبكّر ، مُعبَّراً عنه بمختلف مستويات التّعبير ، وِفقاً للزاوية التي نظر منها الشاعر . وسنقفُ على أُنموذجٍ ثالثٍ له فيما سيأتي إن شاء الله . وهو ، كما قُلنا في التعليق على بيت السُّهمي ، ينظر إلى الفرز السياسي العامّ الذي كان كامناً ، إلى أن أظهرته كربلا إلى العلن والفعل . وسنعود إليه في الآتي بما هو أوفى .

المعنى ينطوي على تحليلٍ عميقٍ للحالة التي كان عليها جمهورُ الناس إجمالاً قبل كربلا ، بين مَن هم مُنتظرون أن يأتيهم الغوث أو الكرى من جانب الإمام ، إذ ينهضُ نهضته المُنتظرَة ، ويستعيد حقّهم المُغتصَب في الدولة العادلة . وبين عناصر الطُّغمة الحاكمة و المُستفيدين منها ، الذين كانت تؤرقُهم نهضتُه نفسُها . وبكربلا وما تلاها انقلبت الآية إلى عكسِها ، فبات الخائفون ينامون مُطمئنين ، والمُنتظرون للغياث أيقاظاً مؤرقين ، يُعانون الآثارَ الباعثة على اليأس للرّزيّة العُظمى ، التي تدلُّ الدّلائل على أنّها كانت خارجَ كل التَّوقُّعات .

ومع ذلك ، مع كل هذا الكلام الذي يبعث على الإحباط ويدعو إلى اليأس ، فإنّنا نرى الشاعر يستعيدُ روحَ المُساءلة الجماعيّة من أُصولها القبَليّة . فيوجّه خطابَه ليس إلى الطُغمة السياسيّة بوصفها الآمرة والمُهندسة للمذبحة ، ولا إلى أُلوف الأشخاص الذين ولوا لها التنفيذ ، بل إلى قبيلتيَن دون غيرهما : (قيس) منّاً عليها بما أعطت فقيرَها ، فتُقابله بأن تقتلها لأقلّ هفوة وإنْ تكُن غير مقصودة (إذا النّعل زلّت) ، ومنها الشّمِر بن ذي الجوشن ، الذي كان أحدَ اللذين أجهزا على الإمام ، بعد أن سقط وقد أثخنته الجراح ، وبات عاجزاً عن القتـال . و(غنى) بالتهديد بالانتقام منها يوماً .

ومنها عقبة الغنوي ، قاتل محمد الأصغر بن الإمام الحسين (ع) ، المُكنّى أبو بكر . فقال :

وتسـألُنا قيسٌ فنُعطي فقـــيرَ هــا وتقتُلُنـــا قيـــسٌ إذا النعــل زلّــــــتِ
وعنـد غنـــيٍّ قطـــرةٌ مـن دمائنــــا سنطلبُهـــا يـومـــاً إذا هـــي حلّـــــتِ

وما ندري لماذا وقع اختياره على هاتين القبيلتيَن فقط ، دون غيرهما من القبائل الكثيرة ، التي شَرَكَ أبناؤها في قتل الإمام وأهل بيته وأصحابه . وقد كانوا معروفين ولا ريب بأشخاصهم وبأسمائهم ، وبكلّ ما جنته يدا كلٍّ منهم .

وعلى كلّ حال ، فإنّ هذا المعنى بالذات من المعاني الثلاثة التي طرقها في قصيدته ضعيفٌ جدّاً . ضعيفٌ بالقياس إلى المعنييَن الجليليَن منها اللذين وقفنا عليهما أعلاه . وضعيفٌ في نزعته القَبَليّة الجاهليّة ، إذ وجّه كلامه إلى القبيلتيَن منّاً ولوماً وتهديداً ، وفي المُقابل سكوتِه عن الآمرين والمُنفّذين ، وهم الأولى منهما بالتّنديد والتّهديد والوعيد . ثم هو ضعيفٌ في الاقتصار غير المُبرّر موضوعيّاً وشرعيّاً واخلاقيّاً على تينك القبيليتيَن دون غيرهما .

القصيدة الثانية لابن قَتّة :

عينُ جُـــودي بعَبــرةٍ وعـويــلِ وانـــدبي إن نـدبــتِ آلَ الرّســولِ
وانـــدبي تسعةً لصُلب علـــيٍّ قـــد أُصيبـــوا وسـتّةً لعقيـــــلِ
وانـدبي شيخهم فليس إذا ما ضُـــنّ بالخيــر شيخهم بالبخيــلِ
واندبي إن ندبتِ عوناً أخاهم ليس فـيما ينوبـهـــــم بـــخَذولِ
وســـميّ النبـــي غُـودر فيهـــم قد علـــوه بصـــارمٍ مصقــــولِ
فلعمري لقد أصبتِ ذوي القُــــــــــربـى فبكّي على المصاب الطويلِ
فإذا ما بكيـتِ عينـي فجـودي بـدموعٍ تسـيلُ كـلَّ مَســـــيـــلِ[1]

---

1 ــ الديوان / 41 .

إنّ خُصوصيّة هذه القصيدة ، برواية الخوارزمي التي اعتمدناها في الديوان ، طبعاً بالإضافة إلى نفَسها النّدبيّ المُعتاد ، أنّها تضع أمامَ المؤرخ أوثقَ وأوفى إحصاءٍ لشهداء كربلا من الهاشميين .

التسعةُ لصُلب عليّ (ع) :

1 ــ الحسين (ع) .
2 ــ علي الأكبر بن الحسين (ع) .
3ـ العباس بن علي (ع) .
4 ــ جعفر بن علي (ع) .
5 ــ عثمان بن علي (ع) .
6 ــ عبد الله بن علي (ع) .
7 ــ محمد المُكنّى أبو بكر ، ابن علي (ع) .
8 ــ القاسم بن الحسن (ع) .
9 ــ عبد الله الأصغر (الرّضيع) ابن الحسين (ع) .

أبناء عقيل بن أبي طالب :

1 ــ مسلم بن عقيل .
2 ــ عبد الله بن عقيل .
3 ــ محمد بن مسلم بن عقيل .
4 ــ عبد الرحمن بن عقيل .
5 ــ جعفر بن عقيل .
6 ــ محمد بن أبي سعيد بن عقيل .

ابنا عبد الله بن جعفربن أبي طالب :

1 ــ عون .
2 ــ محمد ، المَنعوت في القصيدة بـ سميّ النبي .

وهي فيما قد أحصته تتطابق تطابقاً كاملاً مع قصيدة المغيرة بن نوفل بن الحارث الهاشمي . وفي ذلك شهادةٌ لصالح الاثنين ، خصوصاً وأنّهما صدرا عن معرفةٍ وثيقةٍ مباشرةٍ :

أحزنني الدهـرُ وأبكـانـي والدهـر ذو صُـرفٍ وألـوانِ
أفردني من تسعةٍ قُتّلـوا بالطّفّ أضحوا رهـنَ أكفانِ
وستةٌ ليس لهـم مُشـبهٌ بني عقيـلٍ خيـرِ فرسـانِ
والمـرْءُ عونٌ وأخـوه مضى كـلاهمـا هيّـج أحزانـي
مَن كـان مسروراً بما نالنا وشـامتـاً يـومـاً فـمِ الآنِ[1]

أبو الأسود الدُؤلي

شعرُ أبي الأسود الدّؤلي[2] يُذكّرني بما يُقال عن شعر العلماء أو الفقهاء ، الثقيل المُفتقر إلى روح الشعر الحقيقي ، العاجز بالتالي عن تحريك الخيال .

في مطلع القصيدة الأُولى برقم / 42 في الديوان يُنادي " ناعيَ الدين الذي ينعى التُّقى " داعياً إياه إلى أن ينعى الإمام وينعى بنعيه " البيتَ ذا الأستار " ، يعني الكعبة . وهو تركيبٌ للمعاني في الغاية من الرّكّة والضّعف والفهاهة : نعيُ الدين = نعي التُّقى ، نعيُ الإمام = نعيٌ للكعبة . وهل الدين شئٌ غير التُّقى ؟ ثم هل الكعبةُ أفضلُ من الإمام ، كيما يُهوّل بأنّ نعيه بمثابة نعيها ؟ .

أمّا ما عقّب به من دعوة بني قشير الكوفيين إلى الحقّ ، وأنْ يكونوا جُنناً لأهل البيت . . . الخ. مع أنّهم كانوا عُثمانيي الهوى ، وقد هجاهم وأشرنا إلى ذلك في موضع القصيدتين من الديوان ، ــ فهي اختيارٌ عجيبٌ منه ، في ظلّ وجود مَن هم أولى بالدعوة
والحثّ ، من بين الشيعة الكثيرين فيها الذين خذلوا الإمام بعد أنْ دعوه ومنّوه .

---

1 ــ الديوان / 55 .
2 ــ الديوان / 42 و43 .

القصيدة الثانية بروايتَيها، تبدأ بالدعاء على بني زياد بأنْ يُزيل الله ملكهم ويُبعدهم(! !) ، هكذا فقط . وكأنّه لابأس بالإبقاء عليهم من بعد إزالة مُلكهم وإبعادهم . ثم كأنّهم قريبون من الله تعالى ، بحيث أنّ إبعادهم يحتاج إلى دعاء . ناهيك بتنظير قتل الإمام ووضعِه على ما يُشبه قدم المُساواة مع قتل هاني بن عروة ، بل تقديم هذا ذكراً . مع ما فيه من تفجُّع ، لم يُبدِ مثله فيما رثى به إمامَه . وكلُّ هذه معانٍ سطحيّةٌ هابطة ، لاتدلُّ على تفاعُل الحدَث بما يستحقّ في وجدان الشاعر ، ويُحرّك النفس والخيال لدى السّامع . وذلك أمرٌ يبعث بمُجمله على التعجُّب الشديد ، خصوصاً بالقياس إلى بعض ما نعرفه من شعره على الأقلّ . ويدعو النّاقد إلى الرّيب في صحّة نسبة القصيدتيَن إليه .

عبد الله بن عوف بن الأحمر الأزدي

قصيدة عبد الله بن عوف بن الأحمر الأزدي :

ألا فانـعَ خيـرَ الناس جـدّاً ووالداً حسيناً لأهل الدين إن كنتَ ناعيـــا
ليبكِ حسـيناً مُرملٌ ذو خَصاصــةٍ عديمٌ وإمّا ما تشـكـي المـواليــــــا
فـأضحى حسـينٌ للرّماح دريئـــةً وغُـودر مسلوباً لـدى الطّـفّ ثاويـــا
لِيبكِ حسـيناً كلمـا ذرّ شـــــارقٌ وعند غُسوق الليل مَن كان باكيـــا
لحا اللهُ قوماً أشخصوهم وغرّروا فلم يُـــرَ يوم البأس منهـم مُحاميـــا
ولا مُوفياً للعهد إذ حَمِس الوغـى ولا زاجـراً عنه المُضلّيــن نــاهيـــا
فياليتني إذ ذاك كنـتُ شــهدتُـــه فضاربتُ عنه الشّانئين الأعــاديـــا
ودافعتُ عنه ما استطعتُ مجاهداً وأعملـتُ سيفي فيهــمُ وسـنانيـــا
سـقى اللّهُ قبراً ضمّن المجدَ والتُقى بغـربـيّـةِ الطّــفّ الغمــامَ الغواديـــا
فيا أُمّةً تاهت وضلّت سـفاهــةً أنيبوا فأرضـوا الواحـــدَ المُتعاليـــا [1]

---

1 ــــ الديوان / 45 .

ربما يظنّ قارئٌ أنّ من حقّها أن تُنسَقَ في شعر النّدم . ولكنّنا ضننّا بها عن أن
تغيبَ عن أوائل الشعر الحسيني ، لِما فيها من دلالةٍ سنقفُ عندها بما يناسب .

ثم أنّ الشاعر، وإن هو قد تمنّى أن يكون ممّن دافع عن إمامه بما استطاع ، وأن يُعمل سيفَه وسنانَه في الشّانئين والأعادي ، ولكنّ الحقيقة أنّه لم يكُن نادماً بالمعنى الحقيقي للكلمة ، لأنّه لم يرتكب الذنب الذي ارتكبه النّادمون الذين عرفناهم ، بأن حجبوا نصرَهم عن الإمام بإرادتهم واختيارهم . بل ربما كان تخلّفه عن القتال بمحض المُصادفَة(؟) ، أو لأنّ مقامه الطبيعي كان في غير الكوفة ومنطقتِها . وعلى كلّ حال ، فقد كان بعيداً عن مُضطرِبات الأحداث يوم الوقعة . كما صرّح به إجمالاً ، بما يشمل كلا الاحتماليَن ، في قصيدته حيث قال :

فيا ليتني إذ ذاك كنتُ شهدتُهُ

ومن المُؤكّد أنّه لم يكن من بين المئات من أهل الكوفة ، الذين كتبوا رسائلهم إلى الإمام الحسين (ع) يدعونه للقدوم ويعدونه بالنُّصرة . كما أنّه لم يُذكَر في عِداد الذين كانوا يحثّونه على النّهوض قبل وفاة معاوية . وهذه المُلاحظة تُقوّي احتمال أنّه لم يكُن من سكنتها .

إذن ، فقد كان في وضعه هذا أقرب إلى الحسرة والأسف منه إلى النّدم ، لِما فاته من نُصرة الإمام حين حقّت .

مهما يكُن ، فإنّ أبرز ما في قصيدته ، أنّها كانت أوّلَ صوتٍ نعرفه ارتفع بالتّنديد العلني من شخصٍ بارزٍ بالذين غرّروا ، على حدّ ماقال ، بالإمام فدعوه ثم خذلوه . خصوصاً في البيت العنيف الذي ختم به قصيدتَه :

فيا أُمّةً تاهت وضلّت سفاهةً أنيبوا فأرضوا الواحدَ المُتعاليا

وبذلك اللّحاظ يمكنُ اعتبار القصيدة من الإرهاصات العملانيّة الأُولى لظاهرة التّوّابين ، ومن المُهيّآت الموضوعيّة المُبكّرة لظهورها ، بحيث لم تلبث أنْ بدأت بالتّشكّل بعد قليل .

(3) شعر الشّكوى والوعيد

بالإضافة إلى ما عبرناه ، من ضُروب انعكاسات الحدَث الكربلائي في أوائل الشعر الحسيني ، ما كان منها حزناً وشجىً ، وما كان منها ندماً وأسفاً ، وما كان منها انطباعاً وتحليلاً ، ــ بالإضافة إلى ذلك كلّه ، فإنّنا نجِدُ نمطاً رابعاً فيه من هذه أو من بعضِها شئ ، وفيه من الشكوى ممّا مسّ الشاعر من ظلمٍ فادح بنفسِه أو بذويه شئ ، وفيه إلى ذلك كلّه من التهديد والوعيد ما يتركنا على اعتقادٍ بأنّ كلّ تلك البلايا لم تودِ إلى إحباط الأنفس ، بل إنّها ما تزال تنطوي على تصميمٍ قويٍّ بأنّها ستبقى حيّةً في الذّاكرة ، وبأنّ يوم الانتقام قادمٌ لا محالة .

يزيد بن مُفرغ الحميري

فمنها أبياتُ يزيد بن مُفرغ الحميري ، التي يُخاطِبُ بها عُبيد الله بن زياد :

كــم يا عُبيدَ الله عندك مــن دمٍ يسعــى ليُدركــهُ بقتلك ساعــي
ومعاشــرٍ أُنُفٌ أبحــتَ دماءهم فرّقتَهــم من بعـد طول جَمــاعِ
اذكر حسـيناً وابـنَ عروة هانئاً وبنـــي عقيـل فوارسَ المــربـاع[1]

ومنها ما رثى به عُبيد بن عمرو الكندي ثلاثةً من الشهداء :

سعيـد بـن عبـد الله لا تنسينّه ولا الحرّ إذ آسى زهيراً على قَسْــرِ
فلو وقفـت صَـمُّ الجبال مكانهم لمـارتْ علــى سهلٍ ودُكّت على وعرِ
فمن قائمٍ يستعرضُ النّبلَ وجهه ومـن مُقدِمٍ يلقــى الأسـنّةَ بالصّدر[2]

عامر بن يزيد بن ثبيط العبْدي

ومنها ما رثى به عامر بن يزيد بن ثبيط العبدي البصري أباه وأخويه ، وكلّهم من الشهداء مع الإمام :

---

1 ــ الديوان / 50.
2 ــ الديوان / 51 . وسعيد بن عبد الله هو الحنفي .

يا فــروُ قومـي فـانــدبـي خيـرَ البـريّــةِ في القبــور
وابكـي الشــهيد بعَبـــرةٍ من فيض دمعٍ ذي درور
وارثِ الحسين مــع التّـفـجّـــــــــع والتّـــأوّه والزّفيـــر
قتلــوا الحــرامَ من الأئمة في الحـرام من الشّـــهور
وابكي يــــزيــدَ مُجدّلاً وابنيــه في حــرّ الهجيــر
يا لهْفَ نفســي لـم تفُــزْ معهــم بجنّــاتٍ وحُــور[1]

خالد بن المُهاجر بن خالد بن الوليد

ثم بيتا خالد بن المهاجر :

أبنــي أُميّـة هـل علمتـم أنّنـي أحصيتُ ما بالطّـفّ من قبـرِ
حسْبُ الإلـه عليكمُ غضبــاً أبناء جيــش الفتح أو بــــدرٍ[2]

كلُّ ذلك طبعاً إلى جنب ما نجده فيما سبق لنا الوقوف عليه تحت عناوين أُخرى . وأصرحُها وربما أبكرُها قول سليمان بن قَتّة :

وعنـد غنـــيٍّ قطــرةٌ مـن دمائنــــا سنطلبُهـــا يــومـــاً إذا هـــي حلّـــــتِ[2]

وهي جميعها صريحةٌ بما قلناه ، بحيث تُغني عن التعليق .

الفضل بن العباس بن ربيعة الهاشمي

قصيدتا الفضل بن العباس بن ربيعة الهاشمي [3] حافلتان بالمعاني . تضجّان بالشكوى ، على مابينهما من فارقٍ واضحٍ في مستوى الشعر . ما يدلُّ على قوّة التفاعل لديه بما يتناسب طرديّاً مع أحاسيسه . فيُجيد حين يكون مُنبعثاً من إحساسٍ عميق . ويهبط إلى مُستوى نظّام إذ يكون مُفتقراً إلى ذلك الإحساس ومثلِه .

---

1 ــ الديوان / 52 .
2 ــ الديوان / 56 .
3 ــ الديوان / 53 و 54 .

القصيدة الأُولى ، التي خصّ بها شهداء الهاشميين يوم كربلا ، بشهادة أنّه يضع فجيعتَه بهم في أعناق تميم وبكر والسّكون وحمير ، وهذه القبائل الأربعة ممّن شرك أبناؤها في المذبحة ، ــ هذه القصيدة من عيون شعر الرّثاء .

امّا القصيدة الثانية ، فهي تفتقر افتقاراً شديداً إلى روح الشعر . تراكيب لفظيّة تغلبُ عليها المُبالغةُ بالشكوى من مثل قوله :

كلمـــا أحـدثـوا بــأرضٍ نقيقــاً ضمّنـــونـا السّجون أو سيّرونـــا

لينتهي من الشّكوى إلى ما يُشبه جَرْدة حساب مع القاتلين ، يُحصي فيها أسماء قتلى من معارف الشيعة ، ممّن نالوا الشّـهادة في صفين وما بعدها . وصولاً إلى الذين " قُتلوا بالطّفوف " . الأمر الجامع بينهم أنّهم جميعاً قُتلوا على يد الأُمويين وصنائعهم . الطّريف في الأمر أنّه ينتهي من هذه المُطالعة ، وما فيها من تثريب وتهويل ، إلى القول أنّ على قاتليه من أعدائه الأُمويين أن يردّوا هؤلاء جميعاً إلى أولياء دمائهم أحياء ، وأنّه لا يقبل بغير ذلك .

ما هذا من الشعر في شئ . بل هو كلامٌ صبيانيّ ، لايُحرك لدى السامع إلا الشعور بضعف المعنى وعبثيّة الأُطروحة . فكأنّ أخصامَه ينتظرون شروطه ، ويهتمّون كثيراً لرضاه وغضبه .

وكما علّقنا على بعض شعر أبي الأسود الدُؤلي ، نقول أنّ مُقارنة هذه القصيدة بما نعرفه من شعر صاحبها ، وهو كلّه جيّد ، تدعو إلى الرّيب في صحة نسبتها إليه . فلعلّها لغيره من أبناء بيته ، وإنّما نُسبت إليه لشهرته شاعراً ، وذلك ومثله ليس بالأمر العزيز النادر .

الـبـاب الخامـس

المُكتّمات

تعريفٌ وإيضاح

(1) ماذا نعني بالمُكتّمات ؟

يُعنى بالمُكتّمات ذلك الشعر الذي يطرحه صاحبه بين الناس بنحوٍ لايكون منسوباً إليه ، كما هو شأنُ الشعراء وشعرهم . لأنّه يعرف سلفاً أنّ هذا النّمط من الشعر والموضوع الشّعري يُغضبُ السُلطة الحاكمة ، أو أنّه على الأقلّ لا يُرضيها . ولذلك فإنّه إذ ينظمه يكون تعبيراً عن رأيه أو ولائه ، ولكنّه يُخفي ويكتم نسبته إليه تجنُّباً لمُلاحقة السُلطة وأجهزتها له .

ومن هنا نعرف أنّ هذا النّمط من الشعر ، إنْ صحّ القول أنّه نمط ، يكون عادةً أو غالباً سياسيّاً أو ذا نفَس سياسي . كأن يعرض لأحد أهل السُلطة بما لا يُحب ، أو يذكر أحد أعدائها أو أخصامها بالخير ، أو ينعى عليها أداءها السياسي في حالٍ من الأحوال . . . . الخ. ومن الواضح أنّ الشعر الذي يذكر ويُذكّر الناس بيوم كربلا وبما جرى فيه هو من هذا القبيل ، بل هو من أكثر ما يُثير غضب السُلطة ، نظراً لأنّ جمهور الناس هم غاضبون بالفعل أشدّ الغضب ممّا ارتكبَتْ ، وذكره وتذكيرهم به يؤجّج غضبهم ، وذلك ما لا يُريده أهل السُلطة ، وقد يحول بينهم وبين التّمتّع بنِعم الحُكم الهادئ المُستتبّ وملذّاته . وذلك يُفسّر لنا لماذا كثُرت المُكتّمات في الشعر الحُسيني المُبكّر.

والذي نتوقّع أنْ يُلاحظه القارئ اللبيب معنا ، أنّ اكثر ما أوردناه من شعرٍ في الباب الخامس من الديوان تحت عنوان " المُكتّمات " ، منسوبٌ إلى الجنّ . ومنه ما هو منسوبٌ إلى جارية مجهولة لا شأن لها ، أو إلى نائحةٍ كذلك ، أو إلى مولىً أو مولاة ، أو قاله رجلٌ مجهولٌ من أهل إحدى المُدُن البعيدة ، أو الملائكة ، أو وُجد على جدار كنيسةٍ في بلاد الرُّوم قد كُتب قبل الإسلام بقرون ، أو أنّه بـرز لبعض قاتلـي الإمام قلمٌ مـن

حديد فكتبه على الحائط ، أو وُجد مكتوباً بقوّةٍ خفيّةٍ على حجرٍ . . . الخ .

(2) حقيقة شعر المُكتّمات

وما من امرئٍ صحيح الميزان يمكن أن يحمل هذه التخريجات على محمل الجِدّ
والصدق . إذ ليس من شأن ذلك الخلق الخفيّ ، الذي تُسمّيه الخيالات الشعبيّة بالجن ، أن يكون على هذا المُستوى من التمكّن من اللغة العربيّة الحجازيّة وأسرارِها ، بحيث
يأتينا بمثل ذلك الشعر ، بما فيه من بدائع الصُّور التي تُحرّك الخيال والمشاعر إلى الموقع الذي رمى إليه الشاعر . وكذلك القول في الشعر المكتوب باللغة نفسها على جدار كنيسةٍ ، في منطقةٍ يتكلّم أهلُها غير العربيّة . . . الخ .

الأمرُ الجامع بين تلك التخريجات ، أنّ كافة من تنسب إليهم ذلك الشعر ، هم من الذين لا يُمكن أن يكونوا موضع مُلاحقة . إذن فهذا هو المقصود . وما هو إلا الإمعان في تجهيل القائل الفعلي للشعر ، ممّن لا يُمكن أن تُنزل بهم السُلطة العقاب . وهو يدلُّ على دهاء العقل الشّعبي الجَماعي في تدبيج المَخارج لنفسه ، بالمقدار الذي يُزيح مخرز السُلطة عن عينه .

(3) المغزى من شعر المُكتّمات

المغزى الرئيس في ظاهرة المُكتّمات في الشعر الحسيني المُبكّر إجمالاً ، أنّ الوُجدان الشعبي العامّ كان تحت تأثير أزمةٍ مُستحكمة . قوامُها من جهة الحزن والغضب الشّديديَن لِما أُصيب به في الصّميم بمذبحة كربلا وما تلاها ، وحاجته الماسّة إلى التنفيس عن غضبه وحزنه ، بما يُنفّسُ به المرءُ الغاضب أو الحزين عن نفسِه من بكاءٍ ورثاءٍ وندْبٍ ولَومٍ وإدانة . ومن الجهة الثانية ، أنّ التّنفيس يُمكن أن يجعله عُرضةً للعقاب الرّادع ، الذي ليس دفعه بالمَقدور له . فلجأ إلى هذه الوسيلة الذّكيّة ، التي تضعه في منطقةٍ مُتوسّطة بين عنصريّ الأزمة . فتلي النُّخبة التعبير عمّا تُكنّه النفوس ، بما تملك من قُدرةٍ على النّفاذ في الوُجدان العام ، وقدرةٍ على صياغته شعراً ، بما للشعر من طاقةٍ تحليلاً واستنهاضاً . ثم يلي الجمهور أو بعضه الإعفاء على آثار الشاعر وتجهيله ،

بنسبة شعره إلى الجنّ غالباً أو أقلّ إلى الملائكة . . . . الخ. كما عرفنا .

(4) القصّة وموقعها في شعر المُكتّمات

في سبيل استكمال رؤيتنا لشعر المُكتّمات ، علينا أن نُلاحظ أنّ منه ، بل أكثره ، ما أتانا مُطرّزاً بقصةٍ محبوكة الأطراف ، تحكي المُلابسَة التي قيل من ضمنها ، أو بالأحرى ــ انسياقاً مع الغرض من القصّة ــ كيف (وصل) ذلك الشعر إلى راويه أو رُواته ، وعَبرهم إلى الجمهور .

فمن تلك القصص :

أنّ رجلاً من أهل بيت المقدس قال أنّه عشيّة اليوم الذي قُتل فيه الحسين (ع) سُمع مُنادٍ يُنادي في جوف الليل بثلاثة أبيات ، وبهذه الوسيلة عرفوا ما كان [1] .

أُمُّ سلمة زوجة النبي (ص) قالت ، أنّها ما سمعت نَوحَ الجنّ منذ قبض اللهُ نبيّه ، إلا في الليلة التي أُصيب فيها الحسين (ع) . وجاءت جنيّةٌ (لاحظ : جاءت . فكأنّ القصة ترمي إلى الإيحاء بأن لقاء الجنيّة بأُمّ سلمة كان شخصيّاً مادّيّاً . وهذا امتياز عن كلّ القصص) فقرأتْ على مسمعٍ منها بيتين من الشعر [2] .

خمسةٌ من أهل الكوفة خرجوا قاصدين نصرة الإمام . التقوا بجنّيّ طار يلتمس الخبر لهم . ثم عاد ليُخبرهم شعراً بأن المعركة قد وقعت ، وانجلت عن قتله [3] .

إلى غير ذلك من القصص الجَذّابة ، التي يُمكن للقارئ أن يطّلع عليها بالرجوع إلى الديوان .

السؤال : ما المغزى من ذلك ؟ ولماذا يتجشّم واضعوا الشعر تطريزَه بتلك القصص الخياليّة ؟

---

1 ـــ الديوان / 61 .

2 ــ الديوان / 62 .

3 ــ الديوان / 63 .

في الجواب علينا أنْ نُلاحظ ، أوّلاً ، أنّ ذلك يقتضي جُهداً إضافيّاً على نظْم الشعر . لم يلجأ إليه أربابُه ويتجشّموه ، لو لم يكُن في أذهانهم أو وعيهم غرضٌ مقصودٌ منه . ثم كأن هناك نوعٌ من التّباني الضمني أو الخفي بينهم جميعاً على ذلك . فكأنّ هاتيك النصوص، بما فيها من شعر، وما طرّزوه به من قصص، قد صدرت عن عقلٍ واحد وحافزٍ مُشترَك . وفي هذا دليلٌ على أنّ السلوك الجَمْعي ، يصدرُ عن عقلٍ جَمْعي هو الآخَر، ولكنّه فوق عقل الأفراد . يُسيّر أو بالأحرى يُوجّه سلوكهم ، حتى دون وعيٍ منهم . تماماً كما تفعل الثقافة بأبنائها . وذلك ، على كلّ حال ، أمرٌ معروفٌ مَنصوصٌ عليه لدى دارسي السلوك البشري .

ما هو ذلك الغرض ؟

بات من الواضح للقارئ اللبيب الذي رافقنا في هذا الباب ، أنّ الغرض الأساس من شعر المُكتّمات هو التعبير عمّا تُكنّه الذات وإفراغ شحنة الحزن ، مع الحِفاظ على الأمن . إذن ، فما ذلك الغرضُ إلا وضع النصّ الشّعري في سياقٍ حدَثيّ ، أبطالُه إمّا أشخاصٌ مجهولون أو مُتخيّلون (الخمسة الكوفيّون الذين خرجوا لنُصرة الإمام ، أو رجلٌ من أهل بيت المقدس). وإمّا شخصٌ حقيقي فوق الشُّبهات من حيث التّصديق بما يقول ، وأعلى من إمكانيّة المُلاحقة (أمّ سلمة). . . الخ. وبالنتيجة الإمعان الإضافي في تجهيل الفاعل الحقيقي .

(5) تصنيف المُكتّمات

وذلك من حيث الجملة الشعريّة ، والوتر الذي ضربت عليه .

(أ) المنحى الوصفي

ومثاله الوحيد :

جاؤا برأسكَ يا ابنَ بنت محمدٍ مُترمّلاً بدمائه ترميلا

وكأنّما بك يا ابنَ بنت محمدٍ قتلوا جهاراً عامدين رسولا

قتلوك عطشاناً ولّما يرقبوا في قتلك التنزيلَ والتّأويلا

ويُكبّرون بأنْ قُتلتَ وإنّما قتلوا بكَ التكبيرَ والتّهليلا[1] "

والقصيدة من أجمل الشعر الحسيني مُبكّراً وغير مُبكّر . فما من غروٍ إذن في أن يتنازعها الشعراء ، بحيث صحّ لنا ، بعد تعذُّر نسبتها إلى شاعرٍ بعينه ، أن نضعها في الديوان في جملة المُكتّمات . ولعلّ الذي أغرى الطامعين بالتّسابق إلى شرف نظمها ، هو أنّها كانت رزقاً سائباً . وقديماً قيل : " الرّزق السّائب يُعلّم الناسَ الحرام ". فإذا صحّ ذلك ، فلا نكون نحن أوّلَ مَن ألصق بها صفة المُكتّمات .

الانطباع الأوّل الذي تتركه القصيدة لدى الناقد ، أنّ الذي أجّج شعورالشاعر المجهول وحرّك شاعريّته هو مشهد رأس الإمام وقد "جاؤا "به" مُترمّلاً بدمائه " . أي أنّ الشاعر كان حيث جيء بالرأس . وهذا يقتضي أنّه كان في مكانٍ ما من الطريق الطويل الذي سلكه موكب السّبايا ، من الموصل في الجزيرة ، إلى غيرها من بلدان الشام . حيث رأى الرأسَ الشريف يتقدّم الموكب الحزين ، مرفوعاً على قناة .

المنظرُ الرّهيب هزّ كيانه ، بل كأنّه صعقه صعقاً ، فكأنّنا نسمعه يرفع صوته تحت تأثير الذُّعر والدّهشة : " جاؤا ! " . والكلمة باتت من بعدُ بمثابة العمود الفقري الذي تدور حوله القصيدة ، مُستنبتةً الجُمَلَ الشعريّة الثلاث التالية :

ــ الأُولى : تتناسى عمداً أسم الحسين (ع) ، لمصلحة استحضار " ابن بنت محمد " . لِما لهذا الوصف من وِقعٍ خاصّ ، رأينا مثله سابقاً في خطاب زوجة سنان بن أنس إيّاه ، حيث قالت:"قَتَلتَ ابن فاطمة[2]"، وقول عُبيد الله بن الحر الجُعفي :" الحسين بن فاطمة [3] ". وخطاب زوجة كعب بن جابر الأزدي إيّاه : " أعنتَ على ابن فاطمة [4]"

---

1 ــ الديوان /

2 ــ الديوان / 17 .

3 ــ الديوان / 29 .

4 ــ الديوان / 2 .

إلى غير ذلك ، وهو كثير . ليتوصّل في نهاية الجملة إلى أعلى ما يُمكن أن يصِلَ إليه تفليقُ المعنى ، بالقول أنّ قاتل الإمام هو كمَن قتل جهاراً عامداً رسولاً من الرُّسُل ، بمن فيهم طبعاً جدُّه المصطفى (ص) .

ـــ الثانية : وهي مُتابعةٌ لتفليق المعنى نفسه ، ودائماً باتجاه المزيد من التّصعيد لِما ينطوي عليه ويعنيه قتلُ الإمام . هنا يمنحه معنىً إضافيّاً يؤدّي إلى أنّ قاتليه لادين لهم . وهذا المعنى نستفيده من (لَـمّـا) في قوله : لَـمّـا يرقبوا . . . الخ. التي تعني أنّهم لم يرقبوا في أعمالهم التنزيل أبداً ، لا الآن ولا في أيّ آن من بعد (لمّا = لم + لن) . ولو انّه قال : لم يرقبوا ، لاختلف المعنى إلى نفي المُراقبة هذه المرّة فقط .

ـــ الثالثة : صورةٌ عريضة لجزءٍ من المشهد الذي قُلنا أنّه أجّج مشاعر الشاعر . وهو مشهد الجُموع المخدوعة ، التي كان تتلقّى الموكب بإظهار الفرح والزّينة . على أساس أنّ أصحاب الرؤوس ، على ما قيل لهم ، هم من الخارجين على أمير المؤمنين . ونحن نعرف أنّ هذه الخدعة لم تنطلِ على الناس إلا لفترةٍ قصيرة . وسرعان ما بانت لهم الحقيقة الفظيعة . ومنذ تلك اللحظة بدأ تفاعلٌ مُعاكسٌ ، انتهى إلى القضاء قضاءً مُبرماً على البيت السفياني . وصفناه وبيّنّا معالمه في كتابنا (موكب الأحزان) .

ثمة جانبٌ نقديٌّ في البيت الأخير ، ينطوي على إشارةٍ لم يقصدها الشاعر ولا ريب ولا رمى إليها ، مُتضمّنَةٌ في هذا البيت . هو الدّلالة بالتّضمُّن على أنّ القصيدة أوّلُ ما قيل من الشعر في البكاء على الحسين (ع) . وأنّ ما سبق لنا اقتباسَه عن الشيخ الطوسي ، أنّ أبيات عقبة بن عمرو السُّهمي هي الأُولى [1] ، ليس دقيقاً . أوحى لنا بذلك وصفُ الشاعر المجهول لموكب السّبايا وهو يدخل بلدةً من بلدان الشام لعلّها دمشق ، وللجَمْع المُكبّر فرَحاً وهو يتلقّى الموكب ، وصفاً عن عِيان . فهذه درايةٌ تُثبتُ أنّ القصيدة نظمها ناظمُها بعد يوم كربلا بأسـابيع قليلة . وهو امتيازٌ ليست تحظى بمثله

---

1 ـــ الديوان / 38 .

قصيدةُ السُّهمي . تتركُ رواية الطوسي في موضع الشّكّ ، إنْ لم نقُلْ الرّيب .

نخلص من هذه المُراجعة النّقديّة للقصيدة ، أنّها على قِصرها قد لخّصتْ لنا ، عبْرَ الانفعال الصّادق للشاعر ، رَجْعَ الناس على المنظر الذي يُدمي القلوب للموكب الحزين ، بما فيه من رؤوس الشهداء المرفوعة على رؤوس الرماح ، والنساء والأطفال المُعلّقين على أقتاب الإبل . ثم كان من عظيم أثره أنه نشر أصداء كربلا حيثما حلّ على الطريق الطويل . مُضافاً إليه اكتشاف الناس غير بعيد الخديعة النّذلة ، أنّ أُولئك الضّحايا هم مُجرّد خارجين على الشّرعيّة ، المُتمثّلة فيمَن يُسمّونه أمير المؤمنين فيما زعموا . وقد قُلنا كيف تفاعل هذا وذاك في النفوس، وإلى مَ أودى . ولولاه لربما دُفنت كربلا في مكانِها .

(ب) المنحى الفجائعي

وهو المنحى الذي نقرأه في كلّ ما بقي من نصوص الباب .

ومن المعلوم أنّ كلَّ ما تحت هذا المنحى هو ارتكاسٌ وانفعالٌ شخصيٌّ ، يختلف من شخصٍ إلى آخَر . بالنّظر ، أوّلاً ، إلى نمط علاقة الفاجع بالفجيعة . وبالنظر ، ثانياً ، إلى الصورة أو الفكرة التي كانت محل التفات أو اهتمام الشاعر في شعره .

فمنه وأكثره ما يستحضر شخص النبي (ص) ، مُصاباً بالفجيعة ، وحكَماً على القتَلَة يوم الحساب .

مثاله :

أترجو أُمّةٌ قتلت حسيناً شفاعة جدّه يوم الحساب [1]

ماذا تقولون إنْ قال النبي لكم ماذا فعلتم وأنتم آخرَ الأُمـمِ [2]

1 ـــ الديوان / 79 .

2 ـــ الديوان / 68 .

حبيب رسول الله لم يكُ فاحشاً أبانت مُصيبتك الأُنوف وجلّتِ [1]

مسح النبي جبينه فله بريقٌ في الخُدود [2]

ومنه ما هو منظور الشاعر للإمام :

ـــ أبكي حسيناً سيّدا [3]

ـــ أيا عينُ جودي ولا تجمدي وجودي على الهالك السيدِ [4]

ـــ أبكي حسيناً هملا[5] كان حسينٌ رجلا [6]

وفيها مديحٌ وتوصيفٌ للإمام بغير الأوصاف المعروفة على جلالتها . ينظر إلى الصفات الشخصيّة الرّسيّة فيه ، في مُقابل الصفات المُستفادة استفادةً من التّولّد : أنّه كان حرّاً ، وأنّه كان رجلاً . والحريّة والرُّجولة صفتان مُتعاطيتان ، فلا حريّة دون رُجولة ، وأيضاً لا رُجولة دون حريّة الرأي والموقف . فضلاً عن أنّهما ساريتان في غيرهما من محاسن الصفات ، فلا نُبل ولا شهامة ولا شجاعة ولا كرم دونهما . وفي ذلك دليلٌ على أنّ الشعراء الثلاثة المجهولين قد انتزعوا الصفتيَن من دخيلة نفوسهم . وإذا كان من حقّ الناقد أن يُسقط انفعالَه الشخصي من النّصّ على قارئه ، فإنّني أقول إنّ تلك الأبيات الثلاثة من أجمل وأعمق ما قيل في الإمام . فكأنّها ترديد لِما وصف الإمام به نفسه في خطابه يوم العاشر ، قُبيل انفجار القتال : " لا أُعطيكم بيدي إعطاء الذليل ،

1 ـــ الديوان / 69 .
2 ـــ الديوان / 64 .
3 ـــ الديوان / 70 . و السيّد هنا ما يُقابل العبد .
4 ـــ الديوان / 77 .
5 ـــ بدمع غزير .
6 ـــ الديوان / 74 .

ولا أَقِـرّ { أي أسكنُ } ، قَرارَ { سُكونَ } العبيد [1] " .

ومنه ما هو بكاءٌ واستبكاء ، ومثاله فضلاً عن البيتيَن الأوّل والثالث أعلاه :

ـــ ياعينُ جودي بالعِبَر وابكي فقد حــقّ الخبر [2]
ـــ نســاءُ الجــنّ يبكين من الحــزن شجيّــاتِ [3]

ومنه ما يصِفُ مآلَ القتلَة :

كل أهل السماء يدعو عليكم من نبيٍ ومُرسَـلٍ وقتيـلِ
قد لُعنتم على لسان ابن داوود وذي الروح حامـلَ الإنجيلِ [4]

إلى غير ذلك ممّا في وسع القارئ اللبيب أن يتمعّن فيه . مع إلفات النظر إلى النّدبيّات الشعبيّة البسيطة ، من مثل :

يا مريم قومي واندبي مولاكِ وعلى الحسين فاسعدي ببكاكِ [5]

وما فيها من دلالة على أنّ ندب الإمام بات تقليداً سلوكيّاً شعبيّاً ، ما انفكّ مُستمرّاً حتى اليوم في المُمارسة الشعبيّة أيضاً بالمجالس الحسينيّة .

1 ـــ قارن قراءتنا للنّصّ بقراءةٍ غيرها (أُقِرُّ) (أفِرُّ) نرى أنّهما غير ذاتي معنى . لأنّ الإقرار والفرار ، خلافاً للقَرار ، ليسا من شأن وخصوصيّة العبيد .
2 ـــ الديوان / 72 .
3 ـــ الديوان / 73 .
4 ـــ الديوان / 71 .
5 ـــ الديوان / 83 .

الباب السادس

يـزيـد
توطئة

هذا الفصل خصصنا به يزيدَ بن معاوية ، بوصفه المسؤول الأوّل عن جريمة قتل الإمام . أثبتنا في الديوان كلَّ ما له علاقة به من الشعر : ما هو من شعره ، وما استشهد به من شعرٍ لغيره ، وختمناه بما قيل ممّا يُبيّن نهايته .

وربما كان من حقّ هذه المادّة الشعريّة أن تدخلَ الكتاب بوصفها مُلحقاً به ، وليست باباً من أبوابه . خصوصاً وأنّ ثمة ما يعترض دَرْجَها في الشعر الحسيني البُكائي . لأنّ منها ما هو على العكس ، ذو نفَسٍ تبريريّ تسويغيّ للجريمة .

ومع تسليمنا بصحّة الاعتراض ، فإنّنا بعد التأمّل رأينا أنّها ألصق بمادّة الكتاب من أن تكون مُجرّد مُلحق بمتنه . أوّلاً بما لها من صفة أوّليّة في الشعر الحسيني مهما يكُنْ نفسُها . وثانياً لأنّها تنفُذُ إلى حوافز ومُحرّكات صاحبها ، بوصفه المسؤول الأوّل عن الجريمة . فتُرينا كما رأي العين أنّها ليست إلا حوافز البيت الأمويّ إجمالاً، الذي لم يرَ في الإسلام ، منذ مؤسِّس البيت ، إلا أنّه المشروع الذي انتزع منه موقعَه القيادي في البيئة الحجازيّة ، وعبْرها في كل شمال شبه الجزيرة . وثالثاً لأنه يقطع الكلامَ على نهاية الرجل ، بما يُبيّن أنّها كانت من جملة تداعيات يوم كربلا . وكلّ ذلك ممّا يدخلُ في أغراض الكتاب .

يمكن قسمة المادة الشعريّة لهذا الباب كما أثبتناها في الديوان ، ونُعقّب عليها الآن ، إلى ثلاثة أقسام :

ـــ ما يُبيّن حوافز يزيد لارتكاب لجريمة ، وبُغيته منها ، ورجعه عليها ، من وُجهة نظر مُرتكبها طبعاً .

ـــ اعتذاري ، يعمل على التنظير للجريمة ، بالإستعانة بمنظومة القِيَم المحمودة لدى المجتمع الحجازي .

ـــ ما يُقدّم لنا صورةً مؤكّدَةً مُفصّلَة لنهاية يزيد البائسة : الموقع والظّرف والمُلابسات ، وما فيها من دلالة على مَن خطّط ونفّذ . بما يُبيّن يقيناً أنّها أتت من جملة التداعيات المُتوالية لجريمته .

(1) الحوافز والبُغية

لمّـــا بـدتْ تلـك الحُمـول واشـرقتْ تلك الشُّموس على رُبى جيرونِ
نعـق الغراب فقلتُ صِحْ او لا تصِحْ فلقــد قضيتُ من الغريم ديونـي[1]

يا غـراب البين أسمعـتَ فقُـل إنّمـا تـذكـر شـيئـاً قد فُعــــل
ليـت أشـياخي ببـدرٍ شـهـدوا جزعَ الخزرج من وقْع الأسَـل
حيـن حكّـت بقبـاءٍ بَـرْكَـهــــا واسـتحـرّ القتلُ في عبد الأشلّ
لأهلّـوا واستهلّـوا فَـرَحـــاً ثم قالـوا يا يزيـــدُ لا تُشــــلّ
فجـزينـــاهـــم ببـــدرٍ مـثـلَهـا وأقمنـــا مَـيْلَ بـدرٍ فاعتـــدل
لستُ للشـيخييَن إن لم أسـتـثـرِ من بنـــي أحمدَ ما كان فـعـل[2]

البيتان الأوّلان ليزيد ، أمّا الأبيات التالية فهي من قصيدةٍ لعبد الله الزّبعري قبل إسلامه . تمثّل بها يزيد ، فأخذ بعضَ أبياتها ، وأضاف إليها ما يناسب غرضه . وهما البيتان الرابع والسادس.

البيتان الأوّلان كلامٌ صريحٌ بأنّه في قتلِه الإمام كان يُسدّد ديناً في ذمّته لبيتِه ، بأن جنّبه ووقاه من التهديد الخطير الذي كان يُمثّله الإمام الحسين (ع) ، إذ أعلن خروجَه على سُلطة الدولة ، ودعا الناس إلى نُصرته ، وبدأت تظهر إماراتُ ميلهم إليه .

1 ــ الديوان / 84 .
2 ــ الديوان / 86 .

وذلك نظراً لأنّه أعلى مُمثّل لبيته في تركيبة السُلطة . ونظراً لِما تحت يده من إدارةٍ وعسكر وأجهزة تجعله في موضع المُطالَب والمَدين تجاه بيته . وها هو الآن يُشرف على منظر الرؤوس والسّبايا يتغنّى مَرِحاً بأنّه قد وفى دينه .

والذي يبدو من هذه القراءة ، أنّ مسألة البيت الذي أنجب يزيد كانت تأخذ عليه مجامع أفكاره في المواقف . حيث نراه (البيت) هو المقصود والمُخاطَب بما يتجاوز شخصَه ، بوصفه صانع الإنجاز والمُستفيد منه ، إلى أشياخه الذي سقطوا ببدر من عُتاة الأُمويين ، مُتمنّياً أن لو يشهدون منظر النسوة والأطفال من آل مَن كان السبب في ما نزل بهم يومذاك . فيستعير من ابن الزبعري البيت :

ليت أشياخي ببدرٍ شهدوا جزعَ الخزرج من وقْع الأسَل

ثم ليُضيف إليه ما يرفع أيَّ وهمٍ أو استشكال في مَن القاتل وما ومن المقصود بفعل القتل فيذكرهما بالإسم :

لأهلّوا واستهلّوا فَرَحاً ثم قالوا يا يزيدُ لا تُشلّ

لستُ للشيخيين إن لم أستثِر من بني أحمدَ ما كان فعل

وللبيت الأخير معنىً إضافي أن بُغيته من هذا هي طلبُ الثأر ، وأنّه يُعاهد شيخيَه عُتبة وأبا سفيان ، على أنّه لن يقِفَ في الاستثارة = طلب الثأر عند ما فعل ، بل إنّه سيُتابعه في كلِّ مَن هو من " بني أحمد " .

ثم نراه يقول ، وقد سمع نساءَ الحسين (ع) يقُلن " واحسيناه " :

ياصيحةً تُحمَدُ من صوائحِ

أي أنّ هذا النّداء النّادب يلذُّ في مَسمعِه ويحمده .

كلُّ ذلك ، فضلاً عن المكانة العالية التي حلّ فيها عُبيد الله بن زياد لديه ، قبل أن تبدأ الأُمور بالانقلاب بالاتجاه المُعاكس ، كما سبق منّا القول . بحيث وصفه بأنّه صاحب السرّ والأمانة عنده ، ومُبيد أعدائه وحُسّاده[1]. قبل أن يلجأ بعد قليل إلى العمل

---

1 ـــ الديوان / 89 .

على محاولة وضع كامل المسؤوليّة عن الجريمة الكُبرى في عنقه ، كما نعرف ، وكما سنزيده بياناً في الفقرة التالية .

(2) التّنظير الاعتذاري

وشاهده القصيدة التي قيل أنّ يزيد كتب بها إلى أهل المدينة ، يعتذر فيها من
قتل الحسين (ع) [1] . وفيها الإشارة إلى أنّه كان قد لقي الإمامَ بمكة في المسجد الحرام ،
حيث ناشده أن لايعنفَ قومَه بالفخر عليهم بأُمّه الزهراء (ع) ، التي يزعم أنّه يُكنّ لها هو أعظمَ الاحترام ، وأنّه يُشارك الإمام فضلَ الانتساب إليها . وأنّ الإصرار على ذلك سيودي إلى الحرب ، وسيتركه وقومَه طُعمةً للعُقبان .

ولا ذكر لهذا اللقاء المَزعوم فيما وقفنا عليه من كُتُب التأريخ . بل لم يُذكر أنّ يزيد قد رأى الحجاز أصلاً ، فضلاً عن أن يكون قد دخل مكة ومسجدها الحرام . ومن الغنيّ عن البيان أنّ ذلك اللقاء المزعوم لو انّه قد حصل بالفعل ، لحقّ أن تذكره لأهميّته الاستثنائيّة .

ثم أنّ القصيدة وصلتنا برواية راوٍ وحيد ليس غير ، مع أنّها مُوجّهةٌ إلى أهل المدينة كافة حسب الفرْض. وهذا وذاك يدعونا بقوّةٍ إلى الرّيب ريباً شديداً في صحّتها . ولذلك كلّه فإنّنا نُرجّح أنّها موضوعةٌ ، لغرض الإيحاء بأنّ يزيد قد أعذر إلى الحسين (ع) ، وبيّن له وأنذره بمغبّة طلب ما ليس له . أي بالتالي أنّ الإمام هو المسؤول عمّا نزل به .

ومع ذلك فإنّ الرواية ، ومن ضمنها القصيدة طبعاً ، تؤرّخ ضمناً لبدء شعور فريق السُلطة بانقلاب مارتكبوه في كربلا لغير صالحهم . وأنّ عناصر الثورة باتت تتجمّع الآن في المدينة . فعمل على استباقِها بافتعال هذا الخطاب الاعتذاري الهزيل . ولكنّنا نعرف أن ذلك لم يُجدِها نفعاً . إذ قامت ثورتُها الهائلة يوم الحَرّة الشهير .

---

1 ــ الديوان / 88 .

(3) نهاية يزيد

وهي مُبيّنة في النصّ التالي نثراً وشعراً ، الذي يُصرّح بما كتمه التاريخ منها . نُعيد إثباتَه مَعونةً للقارئ على التّمعُّن فيه :

"ولمّا بلغ سَلْمَ بن زياد ، وهو بخراسان ، موتُ يزيد وابنه معاوية كتم ذلك . فقال ابنُ عَرَادة :

يا أيّهـا المـلـكُ المُغـلّق بابَــه　　حـدثـت أُمـورٌ شـأنهـنّ عظيـمُ
قتلـى بحَـرّةَ والذيـن ببابـلٍ　　ويزيـدُ أُعلـن شـأنُــه المكتـومُ
أبنـي أُميّـةَ إنّ آخـرَ مُلككم　　جسـدٌ بحُوّارين ثَــمّ مُقيـــمُ
طرقت منيّتُـه وعند وِساده　　كـوبٌ وزِقٌّ راعـفٌ مَركــومُ
ومُـرنّـةٌ تبكـي على نشوانةٍ　　بالصُّبح تقعدُ عندها وتقومُ[1] "

النصُّ فريدٌ لا ثاني له أو لمثله بمقدار ما بحثنا ونقّبنا .

أولاً بأصل ذكره لواقعة نهاية يزيد الغامضة .

وثانياً بما حفِل به من تفصيلاتٍ دقيقةٍ لمُلابسات نهايته . فكأنّ الشاعر قد قال ما قاله عن عِيانٍ ومشاهدة . أو أنّه ــ على الأقلّ ــ استقى معلوماتِه عن تلك المُلابسات عمّن شهدها ، أو بالأحرى شهد نتائجها بُعيد وقوعها ، لِما سنعرفه أنّ واقعة قتله قد تمّت تحت نطاقٍ مُحكَمٍ من أقصى السّرّيّة .

تلك المُلابسات :

ــ أنّ نهايته أتتْ في أو بجنب قريةٍ نبطيّةٍ صغيرةٍ في وسط الصحراء ، بعيدةٍ عن العمران ، على مسافةٍ قصيرةٍ من خرائب تدمر [2]، اسمحا حُوّارين . ما تزال قائمةً بالاسم نفسه . وهي اليوم تابعة لمحافظة مدينة حمص ، تبعد عنها ثمانين كيلو متراً [3] .

---

1 ــ الديوان / 90 .
2 ــ ياقوت : معجم البلدان : 2 / 313 .
3 ــ ويكيبيديا موقع حوّارين .

فيها العديد من المباني الأثريّة .
ــ أنّه كان وحيداً في ذلك المكان القصيّ ، إلا من جاريتيَن ، إحداهما لفراشه ، المُعَبّر عنها في القصيدة بـ " النّشوانَة " ، والثانية (المُرِنّة) تعزف له على آلةٍ موسيقيّة .
ــ الجارية الأُولى (النّشوانة) باتت معه سكرى " نشوانة ". وعندما استيقظت (المُرِنّة) "عند الصُبح" رأته وجاريتَه قتيلَين . فطفقت تبكي وتندبُ صاحبتَها " تقعدُ عندها وتقوم" ، على التقليد المعروف في إظهار التّفجُّع .
ــ أنّ ميتة يزيد ظلّت مكتومةً مدةً غير قصيرة . بحيث أنّها لم تُعلَن في خراسان
إلا بعد أن أُلحِق به ابنه معاوية ، أي بفاصل أربعين يوماً على الأقلّ ، هي مدّة خلافة معاوية الثاني [1]. والإعلان تمّ بمُبادرةٍ من واليها سَلَم بن زياد ، المُنادى في القصيدة بـ "الملك ". وإلا بعد أن سبقه الشاعر إلى كشْف ما كان مكتوماً .

والظاهر أنّ هذا السيناريو المُتدرِّج ، من الشاعر إلى الوالي إلى الجمهور، كان موضع تفاهُم سِبقاً وسلفاً بين الشاعر والوالي . بحيث لايبدو هذا هو المسؤول عن إعلان ما المطلوب كتمانه .

هذه المُلابسات العجيبة تُثير رغبة المؤرّخ للبحث عن خلفيّتِها ، الكامنة في الحالة السّائدة في دمشق .

فعندما يخرج الخليفة من عاصمته ، مُجتازاً مسافةً طويلةً وسفر عدّة أيّام ، باتجاه قريةٍ صغيرةٍ ليس فيها ما يُقصَد ، وحيداً ليس معه إلا جاريتيَن وزقّ خمر ، ـــ فذلك لا يعني إلا أنّ دمشق لم تعُدْ تتّسع له . وأنّه إنّما خرج منها مُضطرّاً اضطراراً ، إلى بقعةٍ شبه يباب مُستخفياً . وأنّ مَن كانوا سببَ خروجه ولجوئه إليها قد رصدوه حيث هو ، فقصدوه أو أرسلوا مَن اغتاله وجاريته ليلاً وهما نائمان . بحيث أنّ الجارية الأُخرى لم تدرِ بما جرى غير بعيدٍ عن مَبيتِها. وهذا يدلُّ على أنّ الاغتيال قد تمّ بأيدٍ على

1 ــ الطبري : 5 / 503 .

درجةٍ عاليةٍ من الاحتراف .
ثم أنّ كتمان موته يدلُّ على أنّ مَن بيدهم القرار بهذا الشأن ، إعلانا أو كتماناً ، كان لهم من السُلطة مايمنحهم صلاحيّةَ أن يُصدروا القرار، وأنْ يراقبوا حُسنَ تنفيذه .
ومن هنا رأينا والي خراسان يكتم الخبر ، امتثالاً لأمر السُلطة المركزيّة ، التي كانت حصراً في البيت الأُمويّ بدمشق ولا ريب .
نخلصُ من هذا التحليل ، إلى أنّ صاحبَ المصلحة في كتمان القتل هو نفسه مَن ارتكبه ليس غير. لأنّه هو وحده الذي لديه الدّافع للكتمان . دائماً في التحقيق بالجرائم يُبحَثُ بالدّرجة الأُولى عن المُستفيد من الجريمة .
السؤال الآن لماذا ؟
وفي الجواب نقول :
من المعلوم ، استناداً إلى مَسار الأحداث الآتي داخل البيت الأُموي ، أنّ جريمة كربلا وما تلاها قد أدّت إلى انقلابٍ جذريّ في العلاقة بين السُلطة الأُمويّة والجمهور ، من الخضوع المُطلَق إلى الغضب العامّ ، كما قُلنا غير مرّة . بحيث أنّ لعنَ يزيد بات فاشياً بين الناس [1] حتى في دمشق . وهذا بدوره قاد إلى انشقاقٍ بين فرعَي البيت : السفياني والمرواني [2] ، على قاعدة تحميل الأوّل المسؤوليّة كاملةً عن الرّدّة الشعبيّة الهائلة ، التي باتت تُهدّد الحكم الأُموي في الصميم . دون أن يعني ذلك بالضرورة استنكار مبدأ قتل الإمام . بل ، فيما نحسَب ، فقط استنكار الطريقةَ التي تـمّ

---

1 ـــ للتفصيل والتوثيق كتابنا : موكب الأحزان ، ط. دار بهاء الدين العاملي/2011 م / 56 ـــ 57 .

2 ـــ خطب عُبيدُ الله بن زياد في أهل البصرة بعد أن بلغه موت يزيد فقال : " إنّ أمير المؤمنين يزيد قد مات ، وقد اختلف أهلُ الشام " (الطبري : 5 / 504) . ولا شكّ أن المَعنيّ بأهل الشام هنا ليس أهلَه من عامّة الناس ، بل رجال الطبقة الحاكمة حصراً . ومتى كان ابنُ زياد ومَن مثله يهتمّ لاختلاف الناس فيما بينهم ! .

أو عُقّب عليه بها : القتل العلني بدلاً عن الاغتيال سرّاً مثلاً ، الاستفزاز القبيح بوطأ جسده بحوافر الخيول ، وبخطيئة استعراض نساء أهل بيت النبي (ص) وما رافقه من خديعةٍ لم تلبث أن انكشفت .

لسنا ندري ، وأنّى لنا ، ما الذي كان يجرى خلف السّتار بين رجال الفرعيَن الأُمويين ، بحيث اضطر يزيداً إلى الخروج من دمشق ، مُتّخذا طريقه إلى قريـةٍ بعيدةٍ في الباديـة ، خروجَه الذي وصفناه قبل قليل . لكنّنا لا نشكّ إطلاقاً في أنّه إنّما خرج تحت وطأة تهديدٍ جدّيّ لحياته ، ثم أنّنا لانشكُّ أيضاً في أنّ الذين كانوا وراء التهديد هم الذين طاردوه بعناد إلى أن أوردوه موردَ الهلاك كما عرفنا .

لكنّ قتلَ الخليفة ، خصوصاً في ذلك الظرف السياسيّ المُلتبس ، والمُلابسات الباعثة على الرّيب التي حصل فيها ، ليس بالأمر السّهل الذي يمكن أن يمُرَّ بسهولة . لذلك فقد جرى كتمانه إلى أن يتمّ استيعابه أو إخراجه بطريقةٍ أو بغيرها . ومع ذلك فإنّ تتابُع الأحداث المُريبة ، خصوصاً قتل ابنه معاوية بعد قليل ، قد كشف المستور ، بحيث سمح لرجلٍ في مثل موقع ابن زياد من جهاز السُلطة ، بأن يُصارح الناس علناً بالحقيقة المُرّة ، إذ قال " قد اختلف أهل الشام ".

في ختام هذا التحليل نقول ، إنّ النتائج التي وصلنا إليها في هذا السياق ، هي ثمرة قراءةٍ تركيبيّةٍ لبضع أبياتٍ من الشعر . كان يُمكن لتلك النتائج أن تضيع نهائيّاً لولاها . وهذا يؤكّد لنا أنّ أجزاءً أساسيّة من التاريخ موجودة في غير نطاق الكتابة التاريخيّة . ومنها ، بل في رأسها ، الشعر . كما أنّه يُقدّم مُسوّغاً أساسيّاً لمنهج وفكرة الكتاب .

نتائج

إنّ المغزى الرئيس الذي نخرج به من قراءة المادّة الشعريّة في الكتاب وما علّقنا به عليها ، أنّ ما جرى على أرض كربلا ، في تلك الساعات المعدودات من ظهيرة يوم العاشر من المُحرّم سنة 61 هـ ، قد بدأ يُنتج فوراً بما يتناسب تماماً ويؤدّي إلى ما رمى إليه سيّد الشهداء .

منذ تلك اللحظة القصيرة في عمر الزمان بدأ تاريخٌ جديدٌ ، عنوانُه الشهادة . يُمكن للمؤرّخ رصدها باعتبارها عامل تغيير اجتماعي ــ سياسي ــ أخلاقي ، كما عملنا مراراً في متن الكتاب ، ابتغاء الاستعانة به على فهم وتحليل النّصّ الشعري . كما يُمكن (بالأحرى يجِب) رصدها أيضاً في الشعر، أوّلاً لأنّ الشعر هو خزّان ذاكرة الشعوب ، ثم لِما له من قدرةٍ فذّةٍ على تحريك المُخيّلة ، بحيث يُعدي القارئ أو السّامع بالانفعال الذي عمرَ نفسَ الشاعر لحظة نطق بشعره . وبذلك يمنحنا فرصة التّمعّن في دخيلة الجمهور ، في لحظة تحوُّلٍ تاريخيّ خلاّق من الخضوع والالتحاق بالسُلطة إلى الثورة . ثورةٌ بالمعنى العميق للكلمة الذي يتجاوز بمسافةٍ بعيدةٍ المعنى السّطحي ، الذي يقِفُ عند التغيير الشخصي لرأسها ، دونما تغييرٍ مُوازٍ في نمط علاقة السُلطة بالناس وفي سياستها .

ما من مثيلٍ لذلك الدَّفْق الشعريّ الغزير والمُتنوّع ، الذي يدور على واقعةٍ بعينها ، في كلّ ما نعرفه من الشعر . بما يمنحه صفة الفرادة في كلّ الإنتاج الإبداعي العربي الكبير .

إنّ عملنا الأساس في الكتاب دار على السّرّ العميق الكامن وراء هذه الملاحظة . وضمناً وبالتالي إكتشاف السّرّ وراء الرّمزيّة الحيّة التي اكتسبها الحدَث الكربلائي ، بحيث ما انفكّ مُنتجاً على مستوى الإبداع وعلى مستوى التحليل . وأيضاً ما انفكّ مصدرَ إلهامٍ دائمٍ للناس ، عبرَ إحياء وتجديد الحدَث ، الذي يبدو أنّه لم يتوقّف أبدا منذ لحظة حدوثه .

من الجدير بنا مُلاحظته أنّ هذا الفعل التغييري قد ساهم فيه الإثنان : القاتل والمقتول ، الجلاّد والضحيّة .

ساهم فيه الأوّل ، بالإضافة إلى أصل الجريمة ، بما ارتكب من صنوف التّنكيل والتّشفّي بعدها . ثم بالتّصريح بما كان مكتوماً من حوافز ، وصل بها إلى حدّ الإعلان، أكثر ما يكون بالشعر، أنّه ارتكب مارتكب على سبيل الانتقام والثأر ممّن كان السبب في خسران الأُسرة الأُمويّة ما كان لها من موقع عالٍ في شمال الجزيرة العربيّة . وبذلك التصريح أسقط القناع الإسلاميّ الصّفَيق الذي كان يختبئ وراءه .

وساهم فيه الثاني بفعل الشهادة ، بوصفها أصدق وأنبل تعبيرٍ عن خُلوص القصد ووَحْدة القول والعمل . خصوصاً إذ تأتي ممّن له مثل مكانة ومنزلة سبط رسول الله (ص) وريحانته . بالإضافة إلى العمل التحريضي بالشعر وغيره ، الذي تابعه الذين اكتووا ، بدرجةٍ أو بغيرها ، بنار كربلا .

ومن الغنيّ عن البيان أن المُساهمتيَن قد وصلتا معاً إلى عقل ووُجدان وضمير الجمهور . ولم تلبثا أن أنتجتا نتائجهما المَرجوّة تباعاً . ممّا بسطناه بالمقدار المُناسب في متن الكتاب . وما الشعر الذي استوعيناه فيه إلا جانبٌ ضئيلٌ من جوانب التفاعل الخلاّق بين الجمهور والحدَث . قيمته الخاصة من طاقة الشعر الفذّة على تحريك الخيال .

تلك هي الفكرة غير المَسبوقَة التي عملنا عليها في الكتاب . ونرجو أن نكون قد أغنينا بها فكرة القارئ عن موضوعها ، بما له (الموضوع) من حضورٍ خاصٍ في مركّبنا الثقافي والشعائري .

والحمد لله وله الشّكر

بعلبك 29 ذو الحجة 1437هـ
1 تشرين الأول /اكتوبر2016 م

مكتبة البحث

ابن أبي طاهر :

ـــ بلاغات النساء ، ط. بغداد 1389هـ.

ابن الأثير ، علي بن محمد الشيباني :

ـــ الكامل في التاريخ ، ط. بيروت 1385 هـ / 1965م .

ابن أعثم الكوفي ، أحمد :

ـــ الفتوح ، ط . حيدر آباد ، لات .

ابن شهرآشوب ، محمد بن علي المازندراني :

ـــ مناقب آل أبي طالب ، ط . بيروت 1412هـ / 1991 / .

ـــ معالم العلماء ، ط . بيروت ، دار الأضواء ، لات .

ابن طاووس ، علي بن موسى الحسيني:

ـــ الملهوف /اللهوف على قتلى الطفوف ، ط. النجف ، المطبعة الحيدريّة ، لات .

ابن عساكر ، علي بن الحسن الشافعي :

ـــ تاريخ مدينة دمشق ، ط. بيروت 1415 هـ / 1995 م .

ابو الفدا ، ابن كثير ، إسماعيل بن عمر القرشي :

ـــ البداية والنهاية ، ط. بيروت 1966 م .

ابو الفرج الإصبهاني ، علي بن الحسين :

ـــ مقاتل الطالبيين ، ط . بيروت 1419 هـ / 1998 م .

الخوارزمي ، الموفّق بن أحمد المكّي:

ـــ مقتل الحسين ، ط . قم ، مكتبة المفيد ، لات .

جعفر المهاجر :

ـــ التأسيس لتاريخ الشيعة في لبنان وسورية ، ط. بيروت 1413 هـ / 1992 م.

ـــ موكب الأحزان ، نشر مركز بهاء الدين العاملي في بعلبك 2001 م .

الذهبي ، محمد بن أحد بن عثمان :

ـــ تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والاعلام ، ط. بيروت 1410هـ/1990م.

الزبيدي ، محمد مرتضى بن محمد الحسيني :
ــ تاج العروس من جواهر القاموس ، ط. بيروت 1428 هـ / 2007 م .
زينب فوّاز :
ــ الدرّ المنثور في طبقات ربات الخدور ومشاهير النسوان من العرب ، ط . بيروت ، لات .
سبط ابن الجوزي ، يوسف بن قزا وغلي :
ــ مرآة الزمان في تاريخ الاعيان ،ط. بيروت 1434 هـ / 2013 م .
ــ تذكرة الخواص من الأُمة بذكر خصائص الأئمة ، ط. إيران 1426هـ باعتناء حسين تقي زاده .
سليمان بن إبراهيم الحنفي :
ــ ينابيع المودّة لذوي القربى ، ط . بيروت 1988 م .
السماوي ، محمد :
ــ إبصار العين في أنصار الحسين ، ط. لإيران 1417 هـ .
ــ الطليعة إلى مشاهير شعراء الشيعة ، ط . بيروت 1422هـ / 201 م .
شُبّر ، جواد :
ــ أدب الطفّ ، ط. بيروت 1422هـ / 2001 م .
الصّدوق ، محمد بن علي القمّي :
ــ كامل الزيارات ، ط. قم 1429 هـ .
الطبري ، محمد بن جرير:
ــ تاريخ الرسل والملوك ، ط. مصر ، دار المعارف ، لات .
الطوسي ، الشيخ ، محمد بن الحسن :
ــ أمالي ، ط. النجف 1384 هـ / 1964م .
عباس القمّي :
ــ نفَس المهموم ، ط . إيران ، لات .
المرزباني ، محمد بن عمران الخراساني :
ــ أخبار شعراء الشيعة ، ط. بيروت 1388 هـ / 1968 م .

المفيد ، الشيخ ، محمد بن محمد بن النعمان :
ــ الأمالي ، ط . النجف 1378 هـ .
اليافعي ، عبد الله بن أسعد اليمني :
ــ مرآة الجنان وعبرة اليقظان ، ط. حيدر آباد الدكن 1390 هـ / 1970م.
ياقوت بن عبد الله الحموي :
ــ معجم الأُدباء ، ط. مصر ، الطبعة الأُولى ، لات .

فهرست تحليليّ شامل للأعلام